د. حسن البندارى

فوق الأحزان..

"رواية"

الطبعة الأولى
٢٠٠٨

الناشر
دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع
القاهرة – مصر القديمة ٩٥٣ كورنيش النيل



فوق الأحزان..

رواية

المؤلف: د. حسن البنداري

العنوان: فوق الأحزان.."رواية"

تاريخ الطبعة الأولى : ٢٠٠٨
رقم الإيداع : ٨٤٤٦ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولى : I.S.B.N.977-6121-72-1

الناشر: دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع

العنوان: ٩٥٣ كورنيش النيل – مصر القديمة.
البريد الإلكتروني:E.mailDarelebdaa@hotmail.com
ت: ٥٣٢٦٧٤٤–٥٣١٢٣٢١– ٠١٠٦٦٣١٥٨٤

رئيس مجلس الإدارة: د. هدى الكومي

المدير العام: منى عثمان

لوحة الغلاف: للفنان: عطية الزهيري

كلمة الناشر : هذه الرواية ..

رواية "فوق الأحزان" للدكتور حسن البنداري . قرأت أصـــولها منذ شهرين فأبديت رغبة شديدة في أن تحظى بنشرها دار الإبداع هذا العام ..

والواقع أن وراء رغبتي لنشر الرواية اعتبارات عدة؛ فهي تعبِّر عن جيل كامل أهَّله القادة السياسيون والعسكريونُ لخوض معركـــة العبور لتحرير سيناء التي احتلتها القوات الإسرائيلية بحرب يونيو ١٩٦٧، وهي تعرض لشخصيات فنيـــة تحتـــوي علـــى مواقـــف اجتماعية متباينة عقب "الهزيمة المروّعة" وأثناء حرب الاستنزاف، كما أن هذه الرواية صدى رؤية كاتب مجرّب، شارك في حـــرب الاستنزاف، وعانى مع أبناء جيله (المجندين والضباط) من مشاعر الغضب والضيق والرغبة المتوثبة العارمة في اجتياح خط "بارليف" العملاق لإنهاء احتلال هذا الجزء العزيز من الوطن ..

ربما تصورت أطراف دولية عقب النكسة الرهيبة أن "الـــروح المصرية" قد انكسرت، وأن "الإحبـــاط" قـــد تمكـــن مـــن نفـــوس المصريين، وأن "الرضا بالأمر الواقع" هو أمـــر مؤكـــد يســـتحيل

مواجهته، وأنه إذا كانت هنا وهناك ردود فعل على جبهات القتال فإنها لن تغيّر من حقيقة الاحتلال الذي يكرّس العدو لتواصله واستمراره .. لكن هذا التصور سرعان ما تراجع بإرادة "الرفض" والتصميم على تغيير هذا الواقع المهين بالمواجهة الاستنزافية، والتخطيط المحكم للعبور والتحرير . .

لذلك قررت الدولة في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر تحديث القوات المسلحة بالاعتماد الأساسي على المجندين المؤهلين، واتخاذ قرار بناء حائط الصواريخ رغم التضحيات الجسيمة، ومواصلة التدريب الشاق المتنوع، وقد واصلت الدولة في عهد الرئيس الراحل أنور السادات الاستعداد لخوض معركة التحرير، حيث وضع العسكريون المصريون "الخطة المذهلة" القائمة على العمل الصامت، والرؤى الحكيمة لاجتياح خط بارليف العملاق، وعبور قناة السويس بقصد تدمير مواقع العدو، وإرغام من بقى منه على الانسحاب في "ست ساعات" .

وسوف يسجل التاريخ أن عملية العبور الواسعة قد أتيح لها النجاح بفضل "الضربة الجوية" التي خطط لها وقادها الفريق محمد

حسني مبارك قائد القوات الجوية، حيث دمرت الطائرات المصرية المهاجمة مواقع العدو، ومخازنه، وخطوط اتصـــالاته، وإمداداتـــه وشئونه الإدارية في الساعة الثانية وخمس دقائق بعد ظهر يـــوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .. وهي الضربة القاتلة التي مهّدت للهجوم الكاســـح لأفرع القوات المسلحة لكي تمضي في تحقيـــق أهـــدافها القريبـــة والبعيدة ..

ومن الطبيعي أن يتصدى للكتابة عن هذا الموضوع من خاض حرب الاستنزاف، وحرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣، فهم أقدر على تناوله، كما قال ذات مرة أديبنا الكبير نجيب محفوظ في عام ١٩٧٠، ومن ثم تجيء هذه الرواية (فوق الأحزان) المعبّرة عن الروح المصرية الوثّابة التي رفضت "الانكسار" والأمر الواقع . فتحية لجنود مصر البواسل في كافة أفرع القوات المسلحة الباسلة ممن خاضوا غمـــار هذين الحربين، ولجنود الزمن الحاضر الذين يقفون بالمرصاد لأي محاولة تنال من وطننا العزيز .

د. هدى الكومي

رئيس مجلس إدارة دار الإبداع – محررة عسكرية بالإعلام العسكري

عضو اتحاد الكتاب – عضو اتحاد الناشرين المصريين

(١)

محطة نفيشة أخيرا.. تغطي منشآتها المتجاورة صفرةُ شمس يونيو "٦٨" الساعية إلي مدارج الزوال، يقترب منها ببطء قطارنا الحربي المحمل بمئات الجنود؛ جدد مسربلون – منذ أن غادر القاهرة – بكآبة تضاعفت بطول المسافة، وشمس العصر الصفراء، وبالتوقف المؤقت المنذر بالفراق الرهيب، كم حام شبحه الرديء حول خيام معسكرات المعادي بعد صدور الأمر " بتوزيع الجنود " الجدد علي جبهات الإسماعيلية، والسويس، وبورسعيد..

شهدت الشهور الستة الماضية منذ العاشر من يناير٦٨ – دورات تدريب عامة و متخصصة لذوي "المؤهلات العليا" علي المدفع ١٢,٧ المضاد للطيران المنخفض، والمدفع المضاد للدبابات، والهاون ذي المهام المتعددة، والكلاشنكوف، وغير ذلك من الأسلحة التي تتزود بها وحدات سلاح المشاة..

كما شهدت الشهور الستة الماضية برامج توجيه وتوعية، ولقاءات تعارف القادة بالجنود في أوقات الراحة من

التدريب الشاق.. ولا يمكن نسيان صورة رئيس الأركان ليلة الرحيل وهو يغذينا بجرعات أمل في إمكان دحر أسطورة "الجيش الذي لا يقهر " بالوعي والعلم وامتلاك الحيلة وزمام المبادأة الكاسحة..ونمنا ليلة الرحيل وقلوبنا مفعمة بالتفاؤل والبشر..

ها نحن الآن نقترب من المحطة المغطاة بحرارة شمس يونيو المثير للشجن والأسف؛ منذ عام حدثت الهزيمة التي أطلقوا عليها " نكسة ". في ستة أيام انكسر الجيش وتم احتلال سيناء، وصار تاريخ ٥ يونيو مثيراً لذكريات مريرة، ظلت شاهدة علي فشل ذريع في حرب لم تستغرق سوي أيام قليلة احتل الغزاة خلالها مساحة شاسعة "من سيناء"، ليكون الاحتلال طعنة نجلاء في صدر الأمة، وليوقظ الجميع علي الوضع الصريح والحقيقة الظاهرة الأليمة، وليكرس التفكير في أن " إزالة آثار العدوان " – وهذا تعبير مخفف بديل عن تحرير الأرض – رهن بإعادة تنظيم الجيوش المنسحبة المنهارة، وبإعداد نخب مدربة علي الأسلحة المتطورة، لتتقدم

الصفوف مع قرار بتجنيد طوائف المتعلمين دون استثناء أحد..

ها هم مندوبو الوحدات يقفون أمام ثلاثة " لوريات " رملية اللون، لاستقبال جنود عربة من أصل عشرة، لترحيلهم إلي وحداتهم الجديدة.. لا أحد منا يعرف حتى الآن أين ستمضي بنا اللوريات الثلاثة؟!..

نزل الضابط قائد عربات القطار العشر وسلم الضابط قائد اللوريات كشفا بأسماء جنود العربة الذين أمرهم بالنزول بـــ " مخالي المهمات " فنفذوا بنظام صارم. عدد الهابطين خمسة وأربعون جندياً برتبة "عريف" متخصص..

نادى الضابط قائد اللوريات علي خمسة عشر اسماً كنتُ من بينهم، وقال بصوت جهوري حاسم :

- أنتم من الآن ضمن ك "٥٠٠"، كلٌ حسب تخصصه.

ثم نادى علي خمسة عشر آخرين، وقال بنفس اللهجة :

– وأنتم ضمن ك "٥٠١"..

وأخيراً نادى علي الباقين قائلاً :

– وأنتم ضمن ك "٥٠٢".

صمت الضابط قليلا ثم أضاف بلهجة صارمة لجنود الكتائب الثلاث :

– أنتم الآن علي قوة كتائب اللواء "١١٨" مش ميكا. التابع للفرقة "٢٣"، اصعدوا إلي اللوريات.

حملنا " مخالي المهمات " علي أكتافنا ، وصعدت كل مجموعة إلي اللوري المخصص لها، بينما أشار ضابطنا إلي ضابط القطار بالتحرك، فأشار بدوره إلي سائق القطار الذي كان يدلي برأسه ليتابع عملية التسليم والتسلم..

التفتنا ونحن نصعد سلالم اللوريات إلي الجنود الواقفين في نوافذ عربات القطار المتجه إلي الجبهات الأخرى بالجلاء، والفردان، والبلاح، والقنطرة، ومناطق أخرى.. لوّح الجنود لنا ورددنا بالمثل.. أعرف بعضهم ولا أعرف البعض

الآخر.. ورغم انشغالي بالصعود " بالمخلاة " – أصابتني هزة عنيفة نتيجة إحساسي بأنني لن أرى بعد الآن هؤلاء وهؤلاء..

وقلت في نفسي : هذا " فراق " لا يدري أحد مداه، ولا أتوقع أن أرى أياً من أصدقائي الذين رحل بهم القطار إلي المواقع المنتشرة علي جانبي القطار في عمق الصحراء ووسط الزراعات. وقلت : خلف هذه الضفة الغربية تقع القناة المأسورة المعطلة من حركة السفن، وخلفها الضفة الشرقية. وسوف يتحمل الجنود مهام الدفاع عن الضفة الغربية، لا سيما أن العبور المنشود لا يعرف أحد متي ستكون ساعته؟..

مضت بنا السيارة اللوري بجوار ترعة واسعة في طريق يشق أرضاً زراعية تفوح منها روائح الخضراوات والفواكه والزهور، ذكرتني بقريتي "قحافة" المتاخمة لمدينتنا المباركة بالسيد البدوي.. تحد القرية من جهة الشمال ترعة القاصد الواسعة التي تمتد إلي ما بعد مدّ البصر..

كم ارتعبت من هذه الترعة الحافلة بالغموض. أطرقت فرأيتني أجري من وسط القرية إلي شاطئ الترعة لمشاهدة،

"الغريق"، كم من غريق طفا فوق مياهك السوداء يا ترعة، وكم من غريق استقر في القاع أو حملته الرياح والأمواج فلم نره أبداً، وكم من شباب استدعتهم في الليل جنية الترعة واستضافتهم في قاعها فلم يعودوا أبداً.. كانت الترعة الرهيبة محور أحاديث الصبا في ليالي القرية التي لم تصلها بعد الكهرباء..

انتبهت على عبور اللوريات الثلاثة فوق جسر ممتد يعلو الترعة، قال الرقيب أول "متولي الجمال" المسئول عن عربتنا وهو يشير إلى مياه الترعة :

- ترعة الإسماعيلية، يتم التدريب فيها علي العبور يومياً، في النهار وفي الليل.

تأملت مياهها السواء التي تشبه مياه ترعة قريتنا، ولكني لم استشعر الخطورة هذه المرة؛ فقد تخلصت من "رعبي" القديم من مياه الترع المسكونة بالجنيات الداعية، حيث تدربنا علي السباحة في مياه نيل المعادي، أثناء فترة الإعداد الأولي، فصرت مشهورا بالسباحة الخطرة، لدرجة أن

بعض زملائي سموني علي سبيل التفكه والتندرّ : ثابت أبو هيف" في إشارة إلي ربطي بالسباح العالمي "عبد اللطيف أبو هيف"..

في نهاية الجسر تعانقت نظراتي مع لافتة مغبشة مكتوب فيها: "قرية أبو سلطان"، ويعلوها سهم يشير إلي القرية التي بدأت تلوح لنا وقت اختفاء الشمس.. قال الرقيب أول متولي :

- لن ندخل القرية، لأن الهدف هو طرفها الشمالي حيث "الجناين".

سكت برهة، وقال بصوت بطيء.

- ستبقون في الجناين ليوم أو أكثر في انتظار الأوامر.

تأملت الوجوه المواجهة أثناء اتجاه السيارة إلي الجناين التي بدت تلوح شيئاً فشيئاً.. جلس فوق الكنبة الأمامية سبعة عرفاء، بينما توسطتُ سبعة آخرين. أمامي وجوه فكري الجبالي، وعدلى قلدس، ورمزي الحديدي.. تعارفنا في

منتصف السنة الأولي بمدرسة طنطا الثانوية.. تواصلنا وتآلفنا، ولم نفترق رغم اختلاف الكليات التي تخرجنا فيها منذ عامين..

"فكري" حائز علي ليسانس حقوق ،اجتاز المرحلة التمهيدية " للماجستير"، و "عدلى" حصل علي بكالريوس الهندسة بتفوق، ويعمل في شركة بناء عملاقة، وُمنتسب إلي الدراسات العليا للتخصص في بناء الجسور، و"رمزي "خريج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ومرشح للعمل بالخارجية.. قلت في نفسي: وهذا أنا ذا "ثابت المراسي" خريج قسم إعلام بآداب القاهرة تخصص صحافة، وأعد رسالتي للماجستير عن "تأثير الشائعات الصحفية المغرضة علي البناء الاجتماعي"..

ها نحن الأربعة قد توقفت طموحاتنا العلمية والعملية إلي أجل غير مسمي منذ استدعائنا إلي " التجنيد " في السادس من يناير " ٦٨"، جمعتنا نحن الأربعة منطقة تجنيد واحدة، سافرنا من طنطا إلي الإسكندرية في قطار واحد ووقت واحد، توجهنا فور وصولنا إلي "منطقة التجنيد" بالماكس. وكم كان

عجبنا حين اكتشفنا بعد إجراءات الكشف البطيء واختبارات القدرات والمهارات أننا سنكون معا ضمن سلاح المشاة.. وأننا سنرحل بعد غد إلي "هايكستب" في صحراء يحدها من اليمين طريق القاهرة السويس... لننضم إلى مركز "التدريب الراقي" لمدة شهرين.. في نهاية الشهر الثاني صدر أمر الترحيل إلي معسكرات أو أساسات المعادي علي نحو مفاجئ..

أتذكر أن القطار الذاهب إلي القاهرة، والقطار العائد إلي طنطا - كانا يجمعانا نحن الأربعة طوال سنوات الدراسة في كلياتنا المختلفة، كما جمعتنا لقاءات أسبوعية بنادي طنطا الرياضي نمارس فيه رياضتي " تنس الطاولة" و"الكرة الطائرة".. كما اجتمعنا نحن الأربعة علي الاهتمام "بحياة الشاهد"، بل علي حبهّا والتغني بها، ومناجاتها في السرّ والعلن، لم يجد الواحد منا أية غضاضة، أو أي حرج في أن يبوح بالثناء علي "حياة الشاهد"، ولم يكن أي واحد منا يري أنه يجرح شعور الآخر، لا سيما أنها فيما يبدو لم تميز أحدنا علي الآخر. كنا نراها فرحة بنا ونحن نتحاور.. وفرحة

بمشاعرنا البريئة الصافية وهي تدلي برأيها في هذا الموضوع أو ذاك..

حازت حياة مثلي علي ليسانس صحافة وتعمل الآن في صحيفة "الغريبة" التي لا يكاد يعرفها أحد.. كما اشتركنا نحن الخمسة في مناقشات حول السياسة الدولية، والسياسة الإسرائيلية، وحول " الحرب " المتوقعة التي تخطط لها إسرائيل بدعم من أمريكا ودول أخري. كان قطار السادسة والنصف صباحاً الذاهب إلي القاهرة، وقطار الخامسة مساء العائد منها، موطِنين للكلام والخلاف والخصام المؤقت والتصالح، وإثارة الشجون ومشاعر الحنين الرباعية إلي "حياة الشاهد" التي عرفت تنافسنا الشريف وشجعتنا عليه. كانت – ولا تزال – "حياة الشاهد" جديرة بالاحترام والحماية من نظرات المتطفلين وأيدي العابثين..

ولتأكيد موافقتها – علي تنافسنا الشريف – جمعتنا لحضور حفل زفاف شقيقتها الكبرى " ثريا "، الذي أقيم فوق سطح منزل الأسرة الكبير المطل علي ترعة القاصد. أحيا

الحفل المطربان كارم محمود، وعبد الغني السيد، والراقصة الجديدة ناهد صبري، وشارك فيه عدد من نجوم فرقة "ساعة لقلبك" مثل أحمد غانم، و"أبو لمعة الأصلي" و"الخواجة بيجو". تمنيت يومها أن اقترن بحياة الشاهد..

لم أبح بأمنيتي لأصدقائي الثلاثة، ولكنهم لاحظوا شدة غرامي بها، وتركيز بصري عليها في تلك الليلة.. ورغم أنهم لم يدخلوا في " منافستي " فإن ردود أفعالهم قد تباينت في النظرات إليّ وإليها، وهي نظرات جمعها إحساس واحد هو "الغيرة " ، مما جعلني أردد طوال السهرة بيني وبين نفسي : هل أنا أخطأت حين خصصتها بنظرات المتابعة والاهتمام علي هذا النحو الذي لم يخف عليهم؛ هل جرحت مشاعرهم رغم أني لم أبح لهم بما يعتمل في نفسي، وما ينداح في قلبي من مشاعر حب أكيد لا يجعلني أفرط فيها لأحد، ولا أتخلي عنها لغيري مهما كانت الموانع والأخطار؛ إن "حياة الشاهد" هي الأمل الذي يستحوذ علي ذهني ووجداني، ومخططات مستقبلي..

ها هي بعيدة عني الآن، ولكنها ساكنة في أعماقي.. أراها الآن أمامي وإلي جواري، وسوف تصحبني إلي موقعي الجديد علي جبهة القتال.. إنها تخفف الآن من مشقة الطريق، وأري يدها المرمرية تربت يدي بحنان، فكيف يمكن التفريط فيك يا حياة تحت أية ضغوط أو أي احتمال؟!. يمكن أن يحبك كل من يراك ويعرفك ويلتقي بك.. ولكني متأكد أن ثابت المراسي هو المهيمن علي وجدانك الطاهر، هيهات أن ينالك أحد غيري، أو يلحق بك أذي، ولا أشك لحظة في أنك تخصينني بحب صادر عن خفق صادق. هكذا أشعر كلما تقابلنا وتحدثنا علي انفراد، أو وسط الأهل والمعارف والأصدقاء.. فهل يتوقع أحد أن تنصرف يوماً "حياة الشاهد" عن "ثابت المراسي"؟!..

انتبهت علي صوت الرقيب أول متولي الجمال ونحن نتجاوز شاطيء الترعة، قال وهو يشير إلي الترعة التي تتباعد بتقدم اللوري، بينما أقبلت لوريات تحمل جنوداً وأعتدة تتجه إليها:

- ستجري الآن عملية تدريب علي العبور الليلي.

خفق قلبي بالفرح والاطمئنان وأنا أشاهد من بعيد مياه الترعة، فلم أعد أتوجس من المياه بعد أن تعلمتُ السباحة في نيل المعادي في فترة التدريبات الأولي، وتراجعت صورة "الغريق" التي كانت تؤرقني منذ رأيت الطبيب يقلبه بالقرب من الشاطيء.. وها هي خرافة جنية الترعة الداعية تتسرب من عقلي فصارت مجرد ذكري تدعو إلي الابتسام..

حين لاحت لنا الجناين التي سقطت فوق أشجارها الشمس الآخذة في الغروب- قال الرقيب أول متولي :

- نحن الآن في مرمي مدفعية العدو البعيدة.

وكان اللوري قد أكمل التفافه حول قرية " عين غصين " فمضي يقطع طريقاً ممهدة وسط أشجار المانجو والبرتقال والليمون المسوّرة بأشجار الجازورينا العالية، بينما تبعنا اللوريان الآخران إلي الجناين.. وقال الرقيب أول متولي :

- نحن نقترب من مقر رئاسة اللواء المتمركزة في طرف الجنينة، استعدوا للنزول.

هدأت اللوريات الثلاثة من سرعتها في وقت أكملت فيه الشمس انسحابها إلي الغروب، فحلّ لون رمادي ما لبث أن تحول إلي ظلمة خفيفة غلفت الأشجار الكثيفة العالية والمتوسطة الارتفاع والقصيرة التي تسور الحدائق، فلا نري ما يكمن بين الأشجار علي جانبي الطريق الضيق الذي تنيره أنوار اللوريات. لم نسمع أي صوت سوي أصوات المحركات التي ظلت دائرة ونحن نهبط في نظام بمخالي المهمات الواحد بعد الآخر..

نادي علينا الرقيب أول متولي بعد أن وضع كل منا مخلاته أمامه - بكلمتي "انتباه"، و"صفا" عدة مرات، ثم قرأ أسماءنا من قائمة سلط عليها ضوء بطارية صغيرة، وبعد أن اطمأن علي العدد المطابق لما هو في القائمة أشار إلي السائقين بالتحرك والتواري بين الأشجار، ثم قال وهو يتجه بوجهه نحو الأشجار المتنوعة الحجم والطول :

- ستبيتون الليلة وسط الأشجار، وفي الصباح يتم التوزيع علي مواقع الكتائب.

صمت برهة ثم أمرنا بكلمة واحدة حاسمة:

- " استرح "

فامتثلنا للأمر بدون ضيق، لأننا أعتدنا علي مثل هذه الأوامر.. وقبل أن نتحرك قال بلهجة غير حاسمة:

- سأغيب عنكم قليلا. ويمكنكم التحرك.

وقفنا متجاورين في صف واحد.. في انتظار الرقيب أول متولي الذي ما لبث أن عاد يسبقه شبح شخص أدركت أنه ضابط بخطاه الثقيلة المنتظمة.. ورأينا الرقيب يتقدم نحونا بينما وقف الضابط أمامنا. نادي علينا متولي بكلمتي " صفا.. وانتباه " عدة مرات، ثم استدار وعظم الضابط بالتحية العسكرية.

قدم الضابط نفسه إلينا قائلا بلهجة لا تخلو من مودة رغم تجهم وجهه:

- أنا الرائد رفعت الحداد، أهلا بكم في اللواء "١١٨"، غدا ستلتحقون بمواقع الكتائب، أترككم

الآن للاستراحة، وتناول العشاء، والمبيت هنا حتى الصباح، ثم كلمنا عن خطورة الوضع الراهن، وكيف أن العدوّ دائم التحرش، والعدوان، وأن قواتنا وهي تستكمل استعدادها ترد بقوة. ثم أوصى بالحذر واليقظة، وأنهى كلامه بإلقاء الأمر إلينا بالانصراف..

عقب مغادرة الضابط المكان حملنا "المخالي"، وأخذ كل منا يتخذ لنفسه مكاناً في الحديقة.. انحنيت علي مخلاتي واستخرجت منها "كشافًا" صغيرًا كنت قد اشتريته من شارع البورصة بطنطا في الأسبوع الماضي أثناء إجازتي، وعلي هدي من ضوئها اقتربت من أصدقائي الثلاثة "فكري الجبالي"، و"رمزي الحديدي"، و"عدلي قلدس".. لم يتحدث أي منا سوي فكري الذي قال بصوت مسموع :

- الآن يبدأ الخطر. فنحن في مرمي مدافع العدو، وعلينا أن نحافظ علي أنفسنا.

فرددت بصوت مسموع :

- ليكن.. وإن كنت أري أننا سنكون عند حسن ظن الوطن.

وقال رمزي :

- لم أعد أفكر في أي أحد الآن سوي المخلاة والحديقة والمواقع الأمامية.

وقال عدلى:

- تحقق ما كنا نتمناه في المعادي وهو الوصول إلى الجبهة لردّ الاعتبار.. التحرير بالعبور.

وقلت مؤكداً علي قول فكري :

- علينا أن نحافظ علي أنفسنا "لليوم الموعود"؛ فأمامنا مهمة مقدسة.

انحنينا علي "المخالي" واستخرجنا المشمعات ونشرناها فوق الأرض، وفي لحظات استلقي كل منا علي ظهره.. ورأيتني أنظر في مساحات السماء التي تبدو من بين ذوائب الأشجار، كانت بزرقة البحر تسعي في أرجائها النجوم. ولم

يكن القمر قد ظهر بعد.. فكرت في سماء مدينتي المباركة بالسيد البدوي حين كنا نمشي في الخلاء أو نجلس بالقرب من الطريق السريع بجوار "ترعة القاصد" لنلاحظ حركة النجوم والنيازك، وننتشى بإضاءاتها الثابتة والمتحركة، انتظارا للقمر الذي أوشك علي البزوغ..

رأيتني فجأة أحول بصري، من ذوائبْ الأشجار ومساحات السماء المتفاوتة إلي رفاقي الثلاثة وهم مستلقون في صمت دون أن تند عن أي منهم أية حركة.. لم أتمكن بالقطع من رؤية أعينهم لأعرف ما إذا كانوا في حالة نوم، أو حالة يقظة، ولكنني رجحت أنهم يقظون يسبحون في لجات أفكار متلاطمة. احترمت صمتهم فلم أحدث حركة تنبههم، أو توقظهم، أو تخرجهم مما هم فيه، علي حين رأيتني أفكر في الحالة التي انتهينا إليها اليوم "١٨" يونيو "٦٨". ووجدتني أهتف بصوت خفيض ظننت أن لا أحد يسمعه غيري :

– ستة اشهر مضت منذ السادس من يناير "٦٨" بداية رحلة "عسكرة" حياتي.

وسمعت صوت فكري وهو بين النائم واليقظان :

– رحلة مصيرية ينتظر ثمارها الوطن بفارغ الصبر.

فشردت في صورة القطار المتأهب للحركة إلي الإسكندرية ونحن نجلس في إحدى عرباته.. شعرت بإحساس حماسي مقترن بإحساس "بالخوف" من المجهول الذي بالقطع لا أعلمه، ورجحت أن أصدقائي الثلاثة يشاركونني هذا الإحساس المزدوج.. عكست عيونهم هذا المعني، لا سيما أن الكلام بيننا قد توقف، وحل بدلاً منه سهوم كسا الوجوه، وتفكير يتجاوز عربة القطار، والرصيف، والمحطة.. ربما تركز في أسرهم التي ودعتهم بالحزن والدموع قبيل السفر إلي الإسكندرية. لابد من تنفيذ "الرحيل" هذا المساء السادس من يناير بناء علي أوراق "الاستدعاء" إلي منطقة تجنيد الإسكندرية التابع لها مدينتي المباركة بالسيد البدوي؛ ففي المنطقة سوف تتم إجراءات الفحص والكشف الطبي والاختبارات الأولية والتوزيع علي مختلف الأسلحة..

رأيتني أقف في نافذة العربة أتأمل "حياة الشاهد" التي جاءت لتودعنا بصحبة شقيقها أيمن المعفي من التجنيد لكونه "الابن" الوحيد حسب القانون.. أيمن خريج آداب قسم لغة إنجليزية، ويعمل بإذاعة "البرنامج الثاني" الثقافي بالقاهرة، وهو يكبرنا بثلاثة أعوام، وكم شاركنا وهو في سنة الليسانس في مناقشاتنا الفكرية والرياضية والثقافية. ولم نعد نراه إلا علي فترات متباعدة. جاء اليوم لوداعنا فهو يعتبرنا أصدقاءه ونحن بالطبع سعداء به..

رأيتني أنظر في وجه حياة بعينين شغوفتين، وبادلتني شغفاً بشغف، بل زادت بابتسامة مطمئنة أرادت بها أن تطرد عن نفسي القلق، وأن تشيع فيها أحاسيس الثقة بأنها باقية علي تعاهد نظرات عيوننا وانفعالاتها المعلنة والخفية: بأنني لك يا ثابت مهما مرت الأيام ، وانقضت السنون.. ولكني لاحظت أن حياة تودع أصدقائي الثلاثة بحفاوة غير خافية، رأيت فيها الصدق، فقلت لنفسي: لكن احتفاءها بثابت المراسي أمر مختلف ومغاير واستثنائي.. هكذا حكت عيناها وانفعالاتها في يوم الرحيل..

قلت ساعتها في نفسي: أعلم أنني لست المحب الوحيد، وأنك يا حياة لا ترغبين في إحراج أحد يهواك، وتردين علي نظرات الإعجاب بابتسامة ودود.. وإيماءة ممتنة. ومع ذلك فأنا متأكد من أنني احتل جزءاً غير هين من قلبك الواهب للمشاعر المكترثة بسواي ، و تساءلت بثقة يمازجها قلق غير قليل والقطار يتحرك ويتباعد عن المكان الذي تشغله حياة وأيمن فوق الرصيف.. تساءلت : هل سيبقي هذا الجزء في قلبك ياحياة حتى أفرغ من مهمتي المقدسة ، هل سيتواصل اطمئناني الذي تبثه عيناك وأنا أبدأ أولي خطوات رحلتي المعلومة المجهولة؟! ..

ستة أشهر مضت علي لحظة مغادرة القطار رصيف محطة طنطا، ليتجه إلي الإسكندرية حيث منطقة التجنيد؛ لتوزيع المجندين الأربعة علي سلاح المشاة ، ولينتهي بنا الحال إلي إلحاقنا نحن الأربعة بكتائب لواء واحد.

ها نحن الآن نفكر وسط ظلام أشجار الحديقة الحافلة – فيما يبدو – بالسلاح والذخيرة والخطر. نفكر في المواقع

التي سوف تكون بمثابة بيت خصوصي يجب حمايته والدفاع عنه، بل والانطلاق منه إلي مقابلة العدو المتقدم في منتصف الطريق إذا لزم الأمر..

في الموقع البيت تخفت أصوات الأهل والأصدقاء والمعارف والأقارب، ومع مرور الأيام تتراجع الصور وتبهت، وتخف الأصوات وتتواري لتحل في المواقع أصوات جديدة، وصور جديدة فتزيح ما يملأ العين والذاكرة ، فصور المواقع و أصواتها واقع يحتم علينا ألا نشرد بالأذهان، وكيف لنا أن نشرد والخطر أمامنا وحولنا شاهد علي خسارة يجب تجاوزها، واحتلال يجب أن يزول، وكرامة يجب أن تسترد ، ونصر يجب أن يتحقق، وكبرياء وطني يتحتم علينا استعادته؟!..

رغم وضوح صور الحديقة وأصواتها فإن صورة "حياة الشاهد" كانت تهيمن علي ذهني بوجهها الأبيض المستدير، وعينيها المتوسلتين العميقتين، وابتسامتها الوديعة

الوضيئة التي تلازمني في اليقظة والأحلام ، وفي الليل والنهار.. ومع الناس وبدونهم..

أظن أن أصدقائي الثلاثة يفكرون الآن في "حياة الشاهد": أري أن كل واحد منهم يعوّل علي الاستئثار بك يا حياة والاستحواذ عليك..طريقة معاملتك لنا تجعل كلاً منّا يعتقد أنه المطلوب والمرغوب، وإن كانت عيناك تفصحان لي عن أنني وحدي المطلوب والمرغوب..

استمعت إلي زفرة طويلة صدرت عن فكري الجبالي.. انتبهت فأضأت كشافي الضوئي الصغير، سلطت الضوء علي وجهه الذي بدا مكفهرا متوتر الملامح... أشاح بيده فأطفأت الكشاف.. سمعته يقول بصوت واهن وبكلمات متقطعة :

- أنا.. في الواقع.. غير.. مطمئن.

فبادرته قائلا :

- اصبر.. اصبر.. علينا جميعاً أن نلتزم بالصبر.

وسمعته يردد ثلاثة كلمات من أغنية "عبد الحليم حافظ" التي سبق أن استمعنا إليها من الترانزستور قبل عملية توزيعنا صباح اليوم:

- "اللي شبكنا يخلصنا".

وقلت في نفسي رغم أن الأغنية عاطفية تتناول موقف حب يائس بين شاب وفتاة - فإن الكلمات الثلاث تحمل إشارات إلي همّ أكبر وأشمل يجثم فوق صدورنا، ولكن انتظار المخلص حماقة يتصف بها اليائسون، ومن السذاجة أن نلغي قدراتنا وفكرنا انتظاراً لهذا الذي قد يخلصنا وقد لا يخلصنا، ولذلك أضفت أعقب علي قول صديقي فكري..

- لا تتوقع أن يأتي الحل علي طبق من ذهب.

فقال بصوت متهدج :

- في الواقع.. رغم حُزني وتشاؤمي - أحمل قلبا مليئا بالرغبة المقدسة في التخلص مما نحن فيه بأي طريقة.

فعقبت قائلا:

- استمرار الرغبة المقدسة طريقنا إلي الخروج مما نحن فيه.

فقال يؤمن علي كلامي :

- نعم.. حربنا بدأت من اليوم..هذه حربنا .

فقال رمزي متسائلا :

- هل القيادة الحالية قادرة علي تحمل مسئولية إعلان الحرب؟ .

فتساءل عدلى محذرا:

- ماذا تقصد؟.

- ضرورة التدقيق في اختيار القادة ، وفي دراسة القرار السياسي.

فقال فكري مقاطعاً :

- دعوا السياسة للسياسيين، مهمتنا الحرب والقتال حتى الموت.

فقال رمزي :

– القرار السياسي الصائب هو الذي يحول دون تكرار ما حدث.

فقلت مؤيدا ضرورة التغيير:

– حقا.. كيف نحمي ظهورنا؛ ورؤوسنا في وقت الحرب؟!

فقال فكري :

– نعم.. كيف يحمي ظهورنا قادة غير مؤهلين؟!

فقال عدلي:

– أنت تعرّض بعبد الناصر الزعيم..

فقال فكري غاضبًا:

– عبد الناصر زائل والوطن باق و..

توقفنا عن الحديث بضحكة خفيفة صدرت عني سمعها أصدقائي الثلاثة، فقد رأيت أننا نخوض وسط ظلام الحديقة

في قضية الحرب والسياسة، بينما يتعالى إحساسنا بالإجهاد والجوع، فمنذ وجبة الصباح بمعسكر المعادي لم نتناول شيئاً من الطعام والشراب..

جاء جندي وكأنه سمع احتجاجنا الصامت، ووزع علينا "بكاوي" بسكويت، وقال: بعد ساعة سوف يصحبني اثنان منكم لإحضار وجبة العشاء.. مكان المطبخ قريب. اختاروا اثنين قبل أن أعود إليكم..

جعلت أقضم من مربع بسكويت في هدوء ودون تسرع؛ فقد أثارني الحوار، وذكرني بكلام شاركتنا فيه "حياة الشاهد" ونحن عائدين بالقطار إلي طنطا يوم ٢٠ مايو "١٩٦٧". أتذكر الآن أنني قلت في هذا اليوم وأنا مملوء بالتشاؤم، حيث بدأت نذر الحرب تسطع فوق الأفق، قلت :

– خطأ عبد الناصر فادح بقراره المفاجئ.

فتساءلت حياة الشاهد:

– كيف؟!

- قراره بسحب قوات الطوارئ من شرم الشيخ، وإغلاق باب المندب في وجه الملاحة الإسرائيلية سيشعل نار الحرب.

كان يجلس بالقرب منا رجل في الأربعين تقريباً ، نهرني بعنف واتهمني بصفات ليست فيّ. قال :

- أنت عميل.. وأنت جبان.. وأنت تضعف الروح المعنوية، وأمثالك لابد أن يوضعوا فوراً في السجن انتظار للمحاكمة.

تدخل صديقنا عدلى قلدس لوقف هجوم الرجل الأربعيني، فقال بلهجة واثقة :

- موقفنا العسكري سليم ، واقتصادنا قوي ونحن علي استعداد للمواجهة.

فعقبتُ قائلا :

- قد يكون ما تقوله صحيحاً.. ولكن هذا لا يمنع من وصف قرار الزعيم بأنه خاطئ للغاية وخطير جدا.

فعاد الرجل الأربعيني إلي القول:

- الزعيم لا يخطئ. عبد الناصر منزّه عن أي خطأ.

وأردف "رمزي" يقول :

- الموضوع يا ثابت مدروس بعناية؛ وروسيا معنا علي طول الخط، فلم القلق؟!

فاندفعت قائلا :

- أنا لا أثق في الروس.

فتدخل رمزي بالتساؤل:

- كيف لا تثق في الروس وهم يذودونا بالسلاح والمعدات العسكرية؟!

فقالت حياة الشاهد بصوت حاد :

- الروس يعلمون جداً أن الشيوعية مرفوضة تماماً في مصر.

فقال عدلى يرد علي حياة الشاهد:

- هل تقصدين أنهم غير جادين في المساعدة.
- هم غير جادين في موضوع الحرب .
- وبماذا تفسرين تدفق السلاح ودعم المشاريع العسكرية؟.
- مساعدة الروس لنا دائماً ناقصة.. وسوف ترون في المستقبل القريب.

سكتت حياة لحظة ثم استأنفت :

- هم لا يساعدون بأحدث الأسلحة إلا من كان علي مذهبهم، إنهم يعلمون تماماً أن الشيوعية مرفوضة في العالم العربي كله..

فقلت أعزز كلام حياة:

- وهذا خطأ آخر للزعيم الذي يواصل الثقة في الروس.

فقال الرجل الأربعيني :

- اسمع.. لا تتكلم عنه هكذا..الزعيم لا يخطئ أبداً.

وقال صديقنا عدلى:

– التشاؤم يخيمّ علي الجلسة، فلنغير الموضوع.

وشاركته حياة الرأي فقال بغير توتر:

– التفاؤل مطلوب في هذه المرحلة الحرجة.

وقلت أعقب علي كلامها :

– والاستعداد أيضا؛ فعندي معلومات أن إسرائيل تدبّر لعمل كبير.

استمر النقاش وتواصل مع حركة القطار العائد إلي مدينتنا المباركة بالسيد البدوي، وحين خرجنا من باب المحطة اتخذ كل منهم طريقه إلي منزله بينما صاحبتني أفكار وشجون وتوقعات لعمل كبير لا أدري متي يبدأ؟، وإن كنت أشعر أن الخطر وشيك الوقوع، لا سيما أنني حين اقتربتُ من المنزل أبصرت بكلب علي ناصيتي "شارع النحاس وغياث" يصدر صوتاً أقرب إلي العواء منه إلي النباح. كم استمعنا إلي مثل هذا الصوت المنذر قبيل وقوع زلزال، أو حدوث وفاة أحد في مدينتي المباركة.."

(٢)

ها أنا ذا جالس في الظلام أحدق في الماضي بأماكنه البعيدة والقريبة، البهيجة والمؤلمة. ويبدو أنني سأواصل التحديق الطويل نتيجة ما أراه وأشعر به من صمت يتمكن من جوانب الحديقة المظلمة.. لا أسمع أية حركة أو أي صوت منذ أن غادرنا الضابط رفعت..

شعرت بالتوجس والريبة لأنني رأيتني فجأة أزحف في نفق ضيق مظلم يطاردني فيه كائن غير مرئي ولا أجد بصيص ضوء أمامي، وتساءلت وأنا المطارد: هل للنفق مخرج يفضي إلي الضوء والأمان؟ ، وهل أواصل الزحف بقوة المطاردة الغامضة؟، ووجدتني أقول بصوت سمعته وسمعه زملائي :

– تكمن المشكلة في سوء التدبير.

أتاني صوت رمزي المستلقي علي ظهره متسائلا :

– ماذا تقصد؟ أنت تضع شرطاً غير قابل للتنفيذ.

فأكد فكري مرمي كلامي بقوله..

- يجب أن يفسح المجال لقيادات جديدة مؤهلة تحمي ظهورنا ورؤوسنا.

فأضفت أواصل قلقي :

- وحتى يتحقق ما نريد يجب الحذر والمحافظة علي أنفسنا، فبدوننا لن تزول آثار الكارثة التي حلت بالوطن.

قطع حوارنا صوت أقدام تقترب.. تقدم منا شبح الجندي خميس، وقال إنه "جندي" "مراسلة" الرائد رفعت، ثم أضاف بمودة :

- نحتاج إلي اثنين منكم لإحضار "التعيين".

يقصد خميس بالتعيين "وجبة العشاء"، يطلق الاسم أيضا علي وجبتي الإفطار والغداء.. عرفنا أسماء أخري بدت غريبة أول الأمر ثم اعتدنا عليها. وأضاف خميس بنفس الصوت الودود.

- التعيين اليوم "باذنجان باللحم" .

حدثت نفسي بان الباذنجان مقبول مع الجوع.. مطبوخ بلحم قليل أغلبه دهن تسبح فوقه "شوربة" تفوح منها رائحته الممزوجة بالسمن الصناعي، ومع ذلك فالطعام مع حدة الجوع مقبول..

نهض من وسط مجموعة الـــ م / ط، و ال م/د زميلنا رمزي. بينما نهض من مجموعة الـــ م / م القريبة من مكاننا العريف رشوان، ورافقا الجندي خميس، ليتجه الثلاثة إلي مطبخ الرئاسة الذي لم نعرف بعد موقعه من الحديقة.

غاب رمزي ورشوان بعض الوقت، ثم عادا بوعاءين وأرغفة خبز وثمرات جوافة..استخرج كل منا من مخلاته "الأروانة" المقسمة إلي قسمين استقبلا الأرز والباذنجان الذي تسبح فوقه قطع من اللحم الدهني.. جعلت أتناول الطعام بلبّ شارد دون أن أحس بطعمه ولا رائحته.. وبدا لي رغم الظلام أن أصدقائي يشاركونني نفس الإحساس.. كيف يمكن لأي منا أن تقبل نفسه الطعام والالتذاذ بمضغه كما كنا نأكل في غير مواقع القتال؟! أتوقع في لحظة - وأراهم يشاركونني التوقع -

أن تنهال فوق رؤوسنا صواريخ المدافع أو الطائرات التي بالقطع تستهدف الحديقة. لم يعد أي شيء مضموناً في جبهات القتال، ولذلك نحن رغم التصميم علي العبور والتحرير تستغرقنا بين الحين والحين أمواج الشرود..

انصرفنا بعد تناول العشاء إلي "الأدبخانة" أو دورة المياه القابعة في زاوية بالحديقة، قادنا إليها الجندي "خميس"، ثم عدنا لنستلقي فوق "المشمعات" ، بينما ظهر ضوء القمر من بين ذوائب الأشجار المتعانقة، واستغرق البعض نوم عميق أعلنت عنه أصوات "شخير" قريبة، وبعيدة..

فكرت رغم "الصوت" المتواصل في الغد الذي لن يكون مفروشاً بالورد بعد تولي المهمة التي طال انتظاري لها خلال الشهور الستة الماضية، فها هي لحظة الثأر قد حانت، وسوف يدفع الغزاة الثمن عندما أثأر لشقيقي الملازم عادل الذي ربما داسته دبابة مع زملائه الأسري في حرب ٦٧، سوف أثأر للذين سقطوا من العسكريين والمدنين حين أعبر وأحرر، هذه مهمتي المقدسة، التي تتضاءل أمامها أية مهمة أخري..

(٣)

استيقظت بهدير تبين أنه لدبابة كانت متوارية بين الأشجار، وتأكدت أن الحديقة تضم مواقع مدفعية مضادة للطائرات ودبابات متأهبة للتحرك ، وخلفها جنود مدججون بالأسلحة انتظاراً لأوامر يتلقونها في أية لحظة.. وجاء الجندي خميس وأبلغنا أن الهدير المنطلق هنا وهناك ليس سوي "تسخين" "الموتور" لجعل الدبابة في حالة استعداد دائم ويجري هذا صباح كل يوم..

تراجع إحساسي الذي صاحبني أثناء الليل بأن الحديقة آمنة وغير مستهدفة.. وأنها مجرد "إدارة" لشئون المواقع المتقدمة، تراجع هذا الإحساس ليحل واقع مشاهد بأننا في قلب الخطر. وأنه من الممكن أن نهاجَم قبل أن نتخذ مواقعنا لأداء المهمة المقدسة..

في تمام التاسعة اصطففنا بأمر من الرائد رفعت الحداد في صف واحد عرضي في الطريق الضيق الفاصل بين قسمي الحديقة. أحصي العدد الرقيب أول متولي ثم استدار وأدي التحية العسكرية للرائد رفعت قائلا :

- تمام يا أفندم.. العدد كامل.

بادله التحية الضابط رفعت الذي ظهر مفعماً بالحيوية والنشاط ، ثم تقدم من الصف العرضي بمسافة متر تقريبا، وجعل في صمت يتأمل وجوهنا وجهاً وجهاً، بعينين نافذتين تعكسان الصرامة والجدية، ثم وقف أمام كل فرد منا وتحدث إليه بمودة عن المؤهل، والموطن، والإحساس بالموقف الراهن. وبعد أن فرغ من استعراضنا جميعاً تراجع خطوات وقال بصوت عال :

- أنتم طلائع الجيش الحديث.. تدربتم وتخصصتم وعرفتم الكثير. كل واحد منكم سينضم إلي موقعه بعد ساعة، كلٌ حسب تخصصه.. المواقع مشرفة علي القناة.

تسارعت ضربات قلبي ليس عن خوف أو رهبة، ولكن بسبب المجهول الذي ينتظرنا ونحن بغير سلاح.. تمنيت أن أصل بسرعة إلي المواقع لألتصق بالمدفع. كم لامسته بيدي أثناء التدريب عليه في المعادي؛ لأنني أري فيه الحماية

والأمان، ويكسبني إحساسا عالياً بالثقة فلا أفكر في العواقب المحتملة. كم أشتاق إلي التحرك نحو المواقع المطلة علي القناة، لننتظر الهجوم الجوي بأطقم مدافع الـــ م / ط. سوف تعمل الأطقم الأربعة بكفاءة عالية فور أن أصل إلي المواقع. إنني أحمل في صدري إحساساً بالثأر لا يزول إلا بزوال القابعين علي الضفة الأخرى للقناة.. كم فكرت في ضفة القناة المحتلة المأسورة في أيدي الغزاة. وكم اجتاحنا غضب بسبب مرور عام علي الكارثة المروعة التي أسرت بسببها القناة، كم رأيت مياهها و أنا نائم ثم وأنا يقظان، رأيتها بدون سفن، خالية بلا قوارب.. فتساءلت في نومي، وفي يقظتي: متي ينتهي هذا الكابوس الجاثم فوق صدري، وصدر القناة؟!..

نظرت في وجه الضابط رفعت الذي توقف فجأة عن الكلام، بسبب صوت انفجار عنيف خلف الحديقة يبعد بحوالي مائتي متر تقريباً ، ما لبث أن انطلق من الخلف أيضا صوت مدوّ، فأدركت أن ثمة قصفا مدفعيا متبادلا دعا الرائد رفعت إلي أن يأمرنا بالانصراف والاحتماء بسواتر رملية وحفر برميلية منتشرة بين الأشجار..

بدا لي أن الحديقة تقع بين القصفين.. وهذا يعني الخوف من أن نهلك قبل أن نؤدي المهمة المقدسة، كما يعني أنني كنت علي حق حينما أبديت لنفسي القلق من عدم التحاقنا الفوري بالمواقع.. فكيف نسقط ونحن لم نشرع سلاحاً، ولم نطلق قذيفة؟! ليت الضابط يأمر بالتحرك إلي المواقع، سوف أحزن كثيراً حين أصاب بقذيفة وأنا أعزل بغير سلاح.. أيعقل أن أتدرّب وأتخصص طوال الشهور الستة الماضية لأقضي نحبي دون أن أستعمل مدفعي أواجه به الطائرات المغيرة؟..

استمر القصف المتبادل حوالي عشرين دقيقة بدت لنا كعشرين ساعة.. كنت خلالها ممتلئا بأحاسيس العجز والضيق والحنق والأمل، ولكن الحكمة تقضي بأن تصبر حتى يكف الاشتباك، ويتوقف القصف لتنطلق في الوقت المناسب إلي موقعك الذي أعددت له..

ها هو الضابط الشاب يظهر بعد مرور فترة من الصمت قدرتها بنصف ساعة. جمعنا مرة أخري وقال بصوت مفعم بالحنق:

- عريف ثابت المراسي.. ستكون نائب حكمدار فصيلة أطقم الـــ م / ط في الكتيبة "٥٠٠"..

فأديت التحية العسكرية وقلت بصوت مفعم بالسرور:

- تمام يا أفندم.

واصل الضابط الشاب قائلا :

- عريف رمزي الحديدي نائب حكمدار فصيلة أطقم الــ م/ ط بالكتيبة "٥٠١"..

فأجاب رمزي بالتحية العسكرية وبصوت قوي :

- تمام يا أفندم.

وتوالي صوت الضابط الشاب وهو يوزع باقي المجموعة، فكري الجبالي نائب حكمدار فصيلة أطقم م/ط بالكتيبة "٥٠٢"، ومحفوظ البرماوي نائب حكمدار وحدة الإشارة برئاسة اللواء ، و"عدلى قلدس"، نائب حكمدار فصيلة الـــ م / د بـــ ك٧٠٢.. ثم نادي باقي الأسماء التي توزعت علي المدفعيات المضادة للدبابات والهاون ، والــ م/م ، بالكتائب الثلاث..

عقب الفراغ من التوزيع أمر الضابط بأن يحمل كل منا مخلاته ويصعد إلي "اللوري" المخصص له امتثلنا جميعاً للأمر، ثم صعد الرقيب أول متولي وجلس إلي جوار سائق اللوري الأول ومعه عريف شاب.. ثم تحرك اللوري مغادراً الحديقة بغير سرعة وهو يحمل عشرين جنديا ليتخذ طريقاً وسط الرمال مدة عشرين دقيقة، بينما تابعنا اللوري الثاني بباقي الجنود.. ثم ما لبث أن توقف اللوري الأول أسفل هضبة "الشيخ حنيدق"..

نزل الرقيب أول متولي، ثم أمرني بالنزول. في دقائق كنت بجوار اللوري ، فاصطحبني إلي مقر النقيب جمال العارف قائد فصيلتي الـــ م /ط والـــ م/ م ، بينما أمر سائقي اللوريين بالإنتظار حتى يعود ليتجه بهما إلي مواقع ك ٥٠١ و ك٥٠٢، علي حين مضي هو إلي "مقر الضابط" أسفل الهضبة قدرت أنه مركز قيادة فصيلة الـــ م/ط التي تحتل الهضبة وفصيلة الـــ م/م الرابضة في مساحات قريبة من شاطئ القناة..

نظرت بتعاطف إلي زملائي فبادلوني بنظرات مماثلة.. أشرت لهم مودعاً، وحملت مخلاتي علي كتفي الأيسر، لأمضي إلي باب المقر وأقف. سرعان ما خرج منه النقيب جمال العارف بملامح وجه صارم وعيون حادة، ولكنه أحسن استقبالي ثم أمرني بالصعود إلي أعلي الهضبة وأسلم نفسي إلي الرقيب أول عزيز الأسيوطي حكمدار الفصيلة..

جعلت أصعد بخفة ونشاط وحذر في مدارج الهضبة حوالي عشر دقائق حتى وصلتُ إلي قمتها. لاحظت أثناء الصعود أن الهضبة ليست إلا مقابر قرية حنيدق القريبة المحاطة بالزراعات المتاخمة للوادي الرملي. رغم أنني تشاءمت لبعض الوقت فإنني سرعان ما شغلت بحفاوة استقبال أطقم الفصيلة لي، وأسرع جندي نشط وحمل عني المخلاة.. وتقدم عريف يتسم بالهدوء. رحب بي وعرفني باسمه: "شعبان الفيومي" فأدركت أنه أقدم عريف في الموقع.. قال بصوت هادئ :

– أهلا.. أهلا.. ينتظرك الآن الرقيب أول عزيز الأسيوطي حكمدار الفصيلة.

انضم إلينا في الطريق إلي ملجأ الرقيب أول عزيز الأسيوطي عريف ثان أكثر هدوءًا. وصلنا نحن الأربعة إلي مقره الذي وقف أمامه عزيز الأسيوطي. استقبلني بابتسامة عريضة.. دعانا إلي الجلوس أرضا أمام المقر وجلس وسطنا، ثم تحدث عن خطورة الوضع، والأمل في الخلاص من المأزق الرهيب وقال : إن الحالة المعنوية للجنود هنا منخفضة، وفي مواقع أخري قريبة، فهم يرون أن الانتظار قد طال، عام مضي ولم يحدث أي تقدم.. وأضاف:

- الجميع هنا يتساءلون : متي تحين ساعة العبور؟.

رأيتني أجيب علي السؤال الدائر بقولي :

- ساعة العبور رهن باستكمال الاستعداد.. واستيعاب الأسلحة الجديدة..

صمت برهة وقلت :

- المهم أولاً وأخيراً إرادة العبور والتصميم علي التحرير.

فأكد عزيز الأسيوطي قولي :

– بالإرادة القوية يتحقق العبور حتى ولو كان السلاح تقليديا.

استغرقنا الحديث وتشعب مدة نصف ساعة تقريبا، ثم نهض الرقيب أول عزيز ونهضنا جميعا لتفقد مواقع الأطقم الأربعة.. رأيتها تحتل جوانب الهضبة في شكل دائري.. شعرت بالاطمئنان حين شاهدت الحفر المغطاة بشبكات التمويه، وتحتها المدافع المخصصة للتعامل ضد الطيران المنخفض، لمواجهة أية طائرة تحاول مهاجمة المواقع الأمامية، وتحول دون الوصول إلي المواقع الرابضة خلف الهضبة..

فكرت في زملائي بمواقعهم علي حافة القناة : فكري، ورمزي وعدلى، وزملائي بمواقعهم في الوادي خلف الهضبة الدائرية.. وقلت في نفسي. إن مسئولية هذا الموقع كبيرة ولا يمكن للعيون المترقبة أن تغفو وتغفل؛ فالهجوم الجوي المنخفض قد يحدث في أية لحظة من نهار أو ليل، والتهاون

معناه تدمير الأطقم وإنزال الخسائر بالمرابضين علي حافة المياه، والقابعين بأسفل الهضبة في الوادي..

عرفني الرقيب أول عزيز بأفراد الموقع: شعبان الفيومي، ومسعد الرفاعي، وسامي الشبيني، وناجي فهيم، وموسي حبشي، وجودة البنهاوي، وسامي إسكندر، وصبري الويشي ، وأكرم سيدهم، وجلال القناوي، و زكي المناديلي، وعبد التواب السويفي، وهؤلاء بالإضافة إلي عزيز الأسيوطي وأنا ثابت المراسي نشكل فصيلة الـــ م/ط المضادة للطيران المهاجم المنخفض..

عدت إلي الملجأ المخصص لأفراد طاقم المدفع الأول المواجه للفضاء الشرقي الأوسط.. يصل الملجأ بحفرة المدفع بواسطة خندق متوسط العمق طوله حوالي عشرين مترا، لحماية الأفراد من رصاصات القناصة حال اتجاههم إلي الحفرة الدائرية التي تضم المدفع، و"خط الذخيرة" المؤلف من خمسة صناديق تحتوي علي خمسائة طلقة..

ازداد اطمئناني رغم خطورة قرب صناديق الذخيرة من المدفع أثناء ملاحقته للطائرات المغيرة. فصاروخ الطائرة المحلقة، أو صاروخ المدفع علي الضفة الشرقية إذا أطلق علي هذا الطاقم أو ذاك – فإن المصير هو التدمير التام نظرا لوجود صناديق الذخيرة القابعة في حفر المدافع والقريبة منها، ومع ذلك لم ينل مني الخوف، ولم يداخلني الإحساس بالرهبة..

دخلت الملجأ منحنيا حتي لا أصطدم بسقفه الحديدي.. أشارك في الإقامة مع الجنديين : ناجي فهيم، وجودة البنهاوي، شاهدت مخلاتيْ زميلي الملجأ، الذي هو عبارة عن قبو مسقف بأسياخ حديد تعلوها طبقات من شكائر الرمل الواقية..

لم يمض وقت طويل حتي انضم إليّ "ناجي فهيم" الذي احتل الجانب الأيمن، يتوسط جداره صورة للعذراء والسيد المسيح.. تحدثنا فعرفت منه أنه يحمل مؤهلاً متوسطاً "دبلوم صنائع"، وجند قبل أن يتسلم أي عمل. بعد قليل جاء جودة

معتمراً الخوذة حيث سيبدأ فترة المراقبة التالية. بقي معنا دقائق، ثم غادر الملجأ، وقطع المسافة محنيًا رأسه في الخندق الممتد من مدخله إلي حفرة المدفع.. يشغل جودة المكان الأوسط بجوار مكان ناجي.. ووجدت مخلاتي في الجانب الأيسر المثبت في جداره لوحة صغيرة ملونة تتوسطها نصف أية : "إن ينصركم الله فلا غالب لكم". فكرت في جودة الذي يقف الآن خلف المدفع بثبات انتظارًا للأوامر، وتوقعا لأي شيء غير عادي يصدر من الفضاء الشرقي الأوسط..

أدرك ناجي فهيم بعد خروج جودة، أنني في حاجة إلي الراحة قبل أن يجيء دوري في المراقبة المسائية.. فاستأذن وغادر الملجأ عابرا الخندق ومنضماً إلي جودة.. ثم أخذا يتبادلان الحديث بصوت منخفض..

وجدتني وحدي أدير بصري في أرجاء المكان القبو، تأملت الجدارين الأيمن والأيسر : تأملت تجاور صورة العذراء والسيد المسيح، ولوحة جودة : "إن ينصركم الله فلا غالب لكم"، فانشرح صدري وتفاعلت؛ أيقنت أن هذا التجاور

الحميم سوف يكون مدداً معنوياً لنا في مستقبل الأيام.. وسوف نستحضر بين الحين والآخر معاناة العاملين علي إقرار "الحق" وتأكيد "الأمان"، وإشاعة "الاطمئنان".. وقلت في نفسي ستتواصل المهمة المقدسة مادام الباعث علي التفاؤل حاضرا في العين والقلب، وكيف لا يكون تفاؤل وأنا أري هذا التجاور الحميم، والتلاقي الحميد الماثل في المكانين المتقابلين: الصورة المعبرة واللوحة المبشرة؟..

(٤)

في اليوم التالي غطت شمس ما بعد العصر الصفراء هضبة الشيخ حنيدق. شمس لطيفة، ونسيم صيفي معتدل، دفعاني إلي السير بمنظار كبير نحو حافة الهضبة المشرفة علي مواقع المشاة الأمامية الممتدة حتي شاطئ القناة. جلست علي الحافة لأتجاوز ببصري المواقع، وأعبر المياه إلي الشاطئ الآخر: ثمة ساتر ترابي عملاق مرتفع حجب عني رؤية ما وراءه: خط برليف تعلو قمة الساتر نقاط مراقبة حصينة متباعدة.. بينما استطعت بمنظاري المكبر أن أري

مساحات شاسعة بعيدة عن الساتر العملاق.. مساحات خالية من أرض سيناء.. شعرت بحسرة هائلة وجعلت أتساءل في نفسي : من المسئول عن هذه الكارثة المروعة؟!، كيف أمكن للغزاة أن يحتلوا هذا الجزء الشاسع من أرض الوطن علي هذا النحو المزري؟!، وأين كان الجيش الذي كم وصفته أجهزتنا الإعلامية بأنه "أقوي جيش في الشرق الأوسط"؟! من المسئول عن كارثة احتلال هذه الأرض من وطني؟!..

تجولت بمنظاري المكبر في سماء الضفة الغربية للحظات، ثم ثبته في سماء الضفة الشرقية : ها هي السماء زرقاء صافية مزدانة بسحابات بيضاء كالجليد هنا وهناك، وها هو سكون عميق يشمل الهضبة والمواقع الأمامية، يساعدان علي استرجاع صور من حياتي قبل استدعائي للتجنيد منذ ستة شهور..

لم استمع بالطبع إلي أي صوت خلف الساتر الترابي العملاق المزود أعلاه بدشم المراقبة الحصينة التي يقبع خلف فتحاتها قناصون محترفون. تساءلت عن نهاية هذا الصمت

المتواصل، وعن المياة الجارية في القناة دون نتوء أو عائق، أو حركة، ولكنني رغم هذا الصمت شعرت أن شيئا ما سوف يحدث فجأة؛ هجوم جوي كاسح، وربما اشتباك مدفعي مثل اشتباك أمس الذي جري بعد وقت قصير من وصولنا إلي الجناين..

قلت في نفسي إن للعدو عيونا وجواسيس وعملاء يمدونه بالمعلومات، يواكبون بالتقارير عملية إعادة بناء القوات المسلحة، إنهم يعرفون الآن كل صغيرة وكبيرة تجري علي أرض الوطن وحدوده البحرية، ويسجلون ويحللون مثلما سجلوا وحللوا قبل كارثة ٦٧، بينما كنا نغني للزعيم، ونتغنّي به ونهتف باسمه.. هل باستطاعتك الآن يا زعيم أن تحرر وتسترد؟!، ومتي "تزيل آثار العدوان" كما تعهدت؟!، وهل يمكن أن تنفذ شعارك الذي أطلقه الإعلام عقب الهزيمة: "ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة"؟! متي يكون هذا القرار موضع التنفيذ؟..

ها أنا ذا الآن أراك وأنت تمسح دموعك في شاشة التليفزيون يوم ٩ يونيو "١٩٦٧" بعد الهزيمة بأربعة أيام. أثارت الجماهير - الدموعُ التي صاحبت إقرارك وقرارك بتحمل المسئولية كاملة، وإعلانك التنحي عن الرئاسة أو أي منصب رسمي، ورجوت أن يساعدك الشعب علي قرارك الخطير؛ فتفجرت في القلوب أحاسيس "اليتم" و"التعاطف" و"الخوف من المجهول"، و"العجز عن رؤية البديل المنقذ"، فاندفعت الجماهير في مظاهرات عارمة يومي ٩، ١٠ يونيو برفض "التنحي"، وطالبت باستمرارك في الرئاسة، مما جعل بعض وكالات الأنباء العالمية تصف ما جري بأنه مظاهرات حب لزعيم مهزوم. أذكر أنني بكيت رغم دهشتي، وكم تساءلت وأنا أشارك في مظاهرة المطالبة بالبقاء يوم العاشر من يونيو عن مدي صدق الزعيم، الذي تري فيه الجماهير الحاشدة أن الزعيم الذي قطع بهم البحر سوف ينجيهم من الغرق"، هو وحدة دون غيره الذي سيخرجهم من وسط "اليمّ"، وكم قلت في نفسي عقب قرار عدولك عن التنحي: كيف سيحرر أرض وطني زعيم مهزوم، ضرب صدره الوهن

والمرض والقنوط؟!، كيف نسي المتظاهرون أنه المسئول عن الهزيمة المروعة؟!..

أخرجني من شرودي سعال مراقب الموقع عبد التواب السويفي الذي يمسك بيده اليمني آلة خشبية ذات تروس تحدث صوتا عاليا، تتحرك من اليمين إلي اليسار بقوة الدفع ومقاومة الهواء.. هي آلة إنذار بهجوم طيران معاد.. وقلت في نفسي: إن الطائرة دون شك ستصل إلي الموقع قبل أن يفكر المراقب في تحريك هذه الآلة البدائية، المزود بها جميع مواقع الـــ م / ط "١٢,٧" في الكتائب الثلاث، وأضفت : كم من سلاح روسي يجب أن يستبعد. روسيا تمدنا بأسلحة تجاوزها الزمن. مدافع الموقع زمنها ولّى؛ كانت مناسبة للحرب العالمية الثانية. كيف يمكن مواجهة جيش يستخدم وسائل التكنولوجيا الحديثة المتطورة بسلاح تقليدي مثل هذا السلاح؟!، هل يمكن للقلب أن يطمئن وللعين أن تغفو في أمان وسلام؟!. ما لم يفكر القادة في تحديث الجيش لن يتحقق نصر ولا تحرير ولا استرداد، وربما تدهور الموقف وخسرنا أرضا جديدة..

إنهم هناك يفكرون دائماً، يفكرون في القمع والإجهاض، ولن يسمحوا بظهور قوة منافسة في المنطقة. إنهم منذ أن جاءوا يدبرون في الظلام وفي الضوء.. في السر وفي العلن لأمر خطير. فهل يدرك القادة حقيقة ما يجري في السر وفي العلن؟، أنت يا وطني بحاجة إلي معجزة في زمن استحالت فيه المعجزات.. ولكن علينا الآن أن لا ننتظر فلنخرج لهم. "موتا لموت"؟ كما قال الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي في قصيدته التي سمعتها في "الترانزستور" ليلة أمس وأنت قابع في الملجأ الحديدي المحصن بشكائر الرمل..

لفت نظري حدأة آتية من فضاء الضفة الشرقية.. جعلت أتابعها وأقول بحسرة : هل يكفي أن نري طيورنا تتحرك بحرية ونحن عاجزون عن التقدم إلي هذا الساتر العملاق؟! متي نخترقه لنري ما يكمن خلفه؟. لاحظت أن الحدأة فجأة أسرعت في طيرانها نحو فضاء الهضبة، وكأن ثمة من عمد إلي مطاردتها..وفجأة سمعت "أزير" الآلة المنذرة.. وسمعت عبد التواب يصيح ، بل يصرخ بصوت مفعم بالرعب:

– طيران.. طيران.. طيران

لم أتحرك من مكاني، لأنني أعلم أن ما يراه عبد التواب "حدأة " أتت من الشرق، ولكن أطقم المدافع اتخذت وضع الاستعداد، وتسارعت الأصابع إلي أزناد المدافع.. ففي ثوان صار " المدفعي " ملتصقاً بمدفعه. نهضت من مكاني ومضيت نحو دائرة المدافع.. اقتربت من عبد التواب الذي كان يواصل تحذيره بصوته المليء بالرعب، وبأزير الآلة الخشبية الموتر للأعصاب.. صحت فيه :

– حداية يا عبد التواب، حداية يا عبد التواب، حداية يا عبد التواب.

نظر إلي بعينين عكستا الإحساس بالأسى والخزي، ثم "برك " فوق الأرض وانخرط في بكاء متواصل له صوت مسموع. عجبت وتعجبت. لم يطل عجبي. تبدد بكلام "شعبان الفيومي" و "مسعد الرفاعي"؛ فقد شهد الثلاثة كارثة الهزيمة المروعة والانسحاب المزري، وكيف أنهم كانوا ضمن "اللواء" التاسع العائد من اليمن الذي وصل عصر وقت يوم الأحد "٤"

يونيو ليتخذ مواقع في منطقة "الحسنة" في وسط سيناء.. وقد سري بين كتائب اللواء وسراياه اعتقاد بأن " العملية " ليست بالخطورة، وأنها مجرد مظاهرة عسكرية، وأن الحرب لن تَنشب. الحرب ليست واردة في أذهان القادة ولا أذهان الجنود، والعدو لن يفكر في شن أي عدوان علي الوطن، ولا يتصور أحد أنه سيغامر، فجيش إسرائيل غير قادر علي مواجهة "أقوي جيش في الشرق الأوسط"، ولذلك لم تتحصن سرايا الكتائب في المواقع الآمنة. وقال محمد شعبان :

– نصبنا أطقم المدافع الأربعة علي أربعة تلال متقاربة وكانت ظاهرة للعيان.

وقال مسعد الرفاعي :

– ولم يأمرنا أحد بإعداد الحفر الهندسية المناسبة لنصب المدافع، فيها فاعتقدنا أن الكتيبة ستتحرك إلي أرض أخرى.

وقال عبد التواب السويفي :

– نصبت مدفعي فوق تل.. المدفع هدف ظاهر وواضح للطائرات المغيرة !

وقال شعبان :

– فوجئنا في صباح اليوم التالي: "الاثنين ٥ يونيو" بالهجوم الجوي الكاسح..

وقال مسعد :

– المدافع كانت بلا ذخيرة.. فسهل تدمير جميع المدافع الظاهرة للطائرات.

وقال عبد التواب بحسرة :

– مدافع بلا ذخيرة.. وأفراد الأطقم كانوا نائمين.

وقال شعبان :

– كنا نحلم بالعودة إلي ديارنا بعد مضيّ سنة من عملية اليمن.

وقال مسعد :

– لسنا مسئولين علي كل حال.

وأضاف بحزن وأسف :

- داهمتنا الطائرات المغيرة فدمرت الجنود والمعدات قبل أي اشتباك.

عقب عبد التواب :

- تُهنا في الصحراء.. أنا مشيت عشرين يوماً مع آخرين بلا سلاح، وهدفنا كان العودة إلى المنازل لنستريح ونأكل وننام.

وقال شعبان :

- كان الطيارون يقتلون بالفيكرز مئات الجنود المنسحبين بلا خطة ولا تنظيم.. وكانوا يتركون بعض الجنود ليموتوا عطشاً وجوعا وسط الصحراء فوق الرمال الحارقة.

وعمد الثلاثة إلي سرد مزيد من المشاهد المؤسفة؛ فقال مسعد الرفاعي بينما ترقرقت في عينية الدموع :

- رأيت طابورا من الجنود يطلقون النار علي أسري أوثقوا أيديهم وأرجلهم بالحبال.

وقال عبد التواب وهو ينشج بصوت أثار في نفسي منابع الرعب وفجر بها تيارا من الغضب:

- رأيت دبابات تدوس عشرات الأسري الموثوقين بالحبال..

وقال شعبان بصوت متهدج :

- حفروا حفرة كبيرة ورموا فيها الجثث..وأهالوا فوقها الرمال .

سكت للحظات ثم قال :

- كنا نراقب كل شيء من خلف تل بمنظار مكبر وجدته بجواره.

وقال مسعد :

- تبادلنا نحن الثلاثة الرؤية بالمنظار المكبر.

وأضاف بحسرة ممزوجة بالغيظ :

- لم نحارب أصلا.. والانسحاب عشوائي، وتركنا الأسلحة في مكانها، الأسلحة كانت بدون ذخيرة!.

حاصرني الثلاثة برواياتهم ذات المشاهد الرهيبة لأيام وأيام، وكنت حريصاً علي أن أجالس كلا منهم علي حدة ليروي لي تجربته دون تحفظ أو تردد أثناء التيه والضلال في الصحراء، وبين الوديان والجبال، وفي السهول الرملية الخالية من الماء، فاضطروا إلي أكل نبات وهوام الصحراء وإلي "شرب" البول الذي كانوا يحتفظون به في "الزمزميات" المعلقة بخصورهم..

(٥)

مضيت إلي الملجأ عقب حديثي مع الثلاثة وأنا مملوء بالحنق والغضب. سمعت قبل أن أجنّد من ابن عمتي لطفي الطنطاوي أخبارا روعّتني عن اصطياد الجنود المنسحبين، وعن قتل الأسري، لكنني أحسست بالفجيعة وبلغ غضبي أقصي مداه، وأنا استمع إلي هؤلاء الثلاثة الذين صدقهم قلبي وعقلي؛ فنبرات أصواتهم محملة بالفزع، وملامح وجوههم ناطقة بالرعب، وحركات أيديهم معبرة عن المرارة واليأس، ونظرات عيونهم تؤكد أن "جريمة حرب" قد حلت بالجنود المنسحبين والأسري العاجزين..

جعلت أتأمل في الظلام المشاهد التي رسمها الثلاثة في ذهني. كم تألمت.. وتذكرت شقيقي الضابط عادل الذي لم يعد من الحرب ، ولم نعرف عنه شيئاً حتى الآن.. هل لقي مصرعه؟، أم أنه وقع في الأسر؟، أم أنه مفقود في الصحراء فاقدا لذاكرته؟، وتذكرت أمي التي لم تسلّم أبدا بفقده وتنتظر كل يوم أن يدخل عليها أو يطرق الباب فتفتح له وتعانقه وتوزع "الشربات " علي المهنئين بعودته. أمي ما تزال متعلقة بوهم، أو بأمل في أن يعود..

غادرت الملجأ في العاشرة واستلمت فترة المراقبة الثالثة "شنجي" من المراقب جودة البنهاوي.. المجند حديثاً الذي راقب الفترة الثانية "كنجي"، وأبدي جودة رغبته في استمراره في المراقبة لأحصل علي مزيد من الراحة لكنني شكرته واستلمت، وتقدمت نحو المدفع القابع في الحفرة الدائرية..

وجدتني أعتمر الخوذة وأقف خلف المدفع قابضاً علي الزناد بعد أن وجهت ماسورته إلي الفضاء الشرقي.. رغم أن

" المدفعية مقيدة" كما أبلغتنا إشارة رئاسة اللواء - فإنني التحمت بالمدفع، وأرسلت عيني في الظلام إلي الفضاء الشرقي كأني انتظر غارة جوية علي الموقع.. اعتبرت أن هذا السكون مؤقت، لأن العدو لا يعلن عن مجيئه. معرفتي بعدوّي أنه يستغل فترة السكون وحالة التراخي. مخابراته نشطة، وعملاؤه يمدونه بالمعلومات، وربما زرع في صفوفنا أكثر من عميل، ولعل مخابراتنا قامت بالعمل نفسه؛ فثمة حرب خفية تديرها مخابرات الجيوش المتصارعة.. هذا ما عرفته في دورة، "التوجيه المعنوي " التي اجتزتها بتفوق..

في الظلام جعلت أحدق في أشباح من صنع خيالي. أتوقع أن يتم تسلل عبر المواقع الأمامية.. قالوا لنا في الدورة. إن العدو يعتمد علي عنصر المباغتة، يدمر الهدف بسرعة وينسحب بسرعة، فعلي العيون أن تلتزم بالحذر واليقظة في الليل وفي النهار، وتساءلت وأنا مستمر في التحديق : هل آن لنا أن نتسلل عبر القناة ونفاجئ المواقع المحصنة خلف الساتر العملاق؟... ومتي تقرر القيادة العبور؟، ليت العبور يتم وأشارك فيه؛ تعلمت في فرقة الصاعقة " التي اجتزتها بتفوق

- التعامل الحاسم السريع المفاجئ مع العدو، فهل تتحقق أمنيتي وأشارك في عملية عبور سريعة أثبت فيها إصراري علي المواجهة والتحدي، وأخبرهم هناك بأننا بالقطع عازمون وقادمون؟، هل تتحقق قريباً أمنيتي؟، ومتي يحدث العبور الكبير لاستعادة الأرض المأسورة؟، أسروا الأرض خلف الساتر العملاق، وأسروا المياه أمام الساتر العملاق، فمتي نفك أسر الأرض والمياه؟..

فكرت في أسري السجون وهم "قلة"، فمتي يستعيدهم وطني؟، وفكرت في الأسري الذين لم يودعوا السجون وهم كثرة.. سحقت بعضهم الدبابات، ودمرت رءوس بعضهم القذائف من قريب، أراهم - الآن- ممددين موثوقين فوق الأرض تسحقهم دبابة كبيرة، فمتي نثأر لهم يا وطني؟، نجح شعبان الفيومي ومسعد الرفاعى وعبد التواب السويفى في رسم صور الأسري تحت جنازير الدبابات، وصور المنسحبين المطاردين بقذائف الطائرات المنخفضة، استقرت برأسي صور هؤلاء وهؤلاء..

رأيتني أتساءل: هل علمت " مخابراتنا " بما جري علي أرض سيناء؟ هل علمت بجريمة الأسري واصطياد المنسحبين العزل؟! لابد أن ثمة أوراقا تملكها المخابرات، فلم جري السكوت عليها وقد مضي عام علي وقوع الكارثة؟!، كيف صمت الإعلام عن هذه الجريمة؟، ولماذا لم تثرها أية صحيفة أو مجلة؟ ، هل تخلي الجميع عن المطالبة بفتح هذا "الملف" الخطير؟! كيف تنام يا وطني وجنودك أسرى حرب منذ عام ينتظرون؟!

أراني أصعد من الحفرة وأقف بالقرب من حافتها.. أواصل النظر في الظلام واتباع أشباح دبابات وجنود منسحبين وجنود منسحقين.. ليست الأشباح من صنع خيالي، بل صنعتها روايات شعبان ومسعد وعبد التواب ، رووا ما شهدوه وشاهدوه من قتل وسحق و إذلال.. شقيقي الضابط عادل المراسى لم يعد بعد. هل أنت مقتول أم مسحوق أم مسجون؟، لا يمكن أن تكون قد تبخرت في الهواء. أمي تنتظر عودتك ونحن ننتظر. هل سيكشف العبور المنتظر عن مصير شقيقي عادل؟.. بعد أن تسكت المدافع يمكن معرفة

مصير شقيقي وجنودنا وضباطنا المفقودين.. وربما يطرق الباب: فتراه أمي ليوقف تدهور بصرها الذي بدأ يبيضّ من البكاء..

تلقيت في تليفون المراقبة فى التاسعة صباح يوم الجمعة السابع من يناير "٦٩" مكالمة من "إشارة" الكتيبة بأن "الحالة عادية" و "المدفعية مقيدة" بعد الاشتباك العنيف الذي جري أول أمس بين المدافع بعيدة المدى القابعة في الضفتين الشرقية والغربية.. ثم تلقيت مكالمة أخري من صديقي عدلي قلدس بأنه سوف يأتي لزيارتي بعد ساعة ومعه رمزي وفكري...، لم نلتق منذ شهر تقريباً رغم أننا في كتائب لواء واحد، ابتسم قلبي وشعرت بحاجة ماسة لرؤيتهم والتحدث إليهم، وقلت في نفسي : ها قد مّر نصف عام علي وصولنا إلي المواقع الأمامية، وعلينا الاعتصام بالصبر؛ فقرار العبور لن يكون عشوائياً ،لابد أنه سيخضع لفكر عسكري وسياسي يحسن التخطيط لضمان نجاحه، ولا أظن أن القيادة السياسية غافلة عن خطورة القرار، لكن رغم ذلك أجدني أتساءل : متي يتم العبور؟..

ها هم قد حضروا : فكري وعدلي ورمزي.. حصل كل منهم علي تصريح لمدة ثلاث ساعات من قادة فصائلهم.. قصدنا الهضبة المشرفة علي مواقع مشاة قريبة من حافة القناة. نظر كل منا إلي المياه بعيون متحسرة. جلسنا فوق الرمل في شكل دائرة.. لم أكن بعيدا عن مدافع الموقع، تناولنا شايا أعدّه جدوة على "كانون" بالقرب من الملجأ. أفرغته في أكواب من ترمس صغير وضعته شقيقتي فكرية بأمر من أمي في حقيبتي نهاية إجازتي السابقة، فصار ضمن محتويات مخلاتي. جعلنا نحتسي الشاي ونوزع أبصارنا بين مراقبي الموقع وفضاء البرّ الشرقي.. وجعلت اقرأ مقال "أحمد راغب" تحت عنوان "مكاشفة" الذي أحضره لي جودة من قرية حنيدق – التي تطل عليها الهضبة. استعرضنا معاً محتوى المقال الذي يتناول "القدرة النووية الإسرائيلية"، واستغرقنا الكلام حول هذه القدرة التي سربتها إسرائيل لبعض الصحف الأوربية، والخليجية والأفريقية، وأشارت إليها إذاعتنا لندن وصوت أمريكا..

أدركت مغزى تسريب هذه المعلومة الخطيرة في الوقت الراهن، فالهدف هو إحباط آمال الوطن في تحرير الأرض المأسورة؛ إذ كيف يمكن لنا أن نغامر بدخول حرب ضد عدو يملك قدرة نووية لا نملكها؟!، ويقول الكاتب: وتؤكد صحيفة واشنطن بوست: أن العواصم العربية جميعاً مستهدفة بالقنابل النووية في حالة ما إذا فكرت أي دولة عربية في مهاجمة إسرائيل، وتساءلت: ما قيمة التدريب والعدو يسلط قنابله النووية علي كل عاصمة عربية؟!، ما فائدة الإعداد العسكري بسلاح تقليدي ما دام الفشل متوقعا، والنهاية معروفة، والمصير حتمياً؟! انهزم العرب جميعاً في ثلاثة حروب: ٤٨، و٥٦، و٦٧... ويواصل الكاتب الشهير في مقالته المخيفة فيقول: ذكرت صحيفة إندبندد: أن هناك صواريخ إسرائيلية تحمل رؤوسا نووية، مستعدة للإطلاق عند اللزوم علي محافظات مصر كلها..

جعلنا نتأمل هذه المعلومات بين مصدق ومكذّب.. والمؤكد أن إحساس "الإحباط" بدأ يتخايل لأبصارنا المتجهة إلي الفضاء الشرقي، وقلت في نفسي : مهما كانت أسباب

هزيمة "٦٧"، فإن المسئولية معلقة في رقبة "الزعيم" الذي مازال يحكم وينظّر ويفاوض ويعيد تنظيم القوات المسلحة. فهل فكر في احتمال قيام العدو بضربة نووية عندما يأمر بالعبور والتحرير؟، قال الزعيم في خطاب عام " ما أخذ بالقوة لا يُسترد بغير القوة "، فهل قواتنا في أي وقت قادرة علي المواجهة؟، هل أحسن اختيار القادة العسكريين الذين سيخوضون بنا الحرب المصيرية؟، هل يمكن أن يمنع أحد هذا "الإحباط" الذي لا شك سوف يسري في المواقع والمدن خلال أيام قليلة بسبب احتمال الهجوم النووي؟..

نحيت الأهرام جانباً لأستمع إلي قول فكري الذي توالت كلماته ببطء :

- لا يمكن أن تستخدم إسرائيل قنبلة نووية ضد أي دولة عربية.

فتساءل رمزي :

- وماذا يمنعها؟ .

- قربها.. أنسيت أن الدولة العبرية وسطنا؟ .

فقال عدلى :

- أمر واحد يمكنها من استخدامها وهو أن تتعرض للإبادة والمحو.

فسارعت إلي القول :

- نحن لا نبيد ولا نمحو، هدفنا فقط هو تحرير الأرض.

فقال رمزى :

- نعم إنها دولة معترف بها من أغلب دول العالم، هي دولة ذات سيادة..

فعقبت :

- هدفنا مشروع. هو الحل العادل ولن نصل إليه إلا بقوة واعية.. هدفنا تحرير الأرض.

فقال فكري :

- حين أري هذا الساتر العملاق أصاب بالإحباط.. كيف يمكن لنا أن نجتازه؟.

وعقب عدلى :

- وكلما رأيت إضاءات " كشافات " الدورية خلف الساتر وفي المساحات البعيدة الخالية خلف التلال القصيرة.. أشعر بالمهانة والمذلة.

فصاح رمزي :

- يا جماعة، نحن نجلد أنفسنا، ولم نكن يوما مسئولين عما حدث.

فبادرت إلي القول :

- بل نحن أيضا مسئولون، فرّطنا في حق الاعتراض علي الزيف والقهر، فكان ما كان.

ورد فكري معقبا :

- معك حق يا ثابت، ولكن أنت تعلم أن أي اعتراض أو رفض مصير صاحبه "المعتقل" أو " السجن " .

سكتّ مرغماً لأتذكر موقفا وأنا طالب بالسنة الأولي بكلية الآداب عندما قرأت بالجمعية الأدبية قصة قصيرة

بعنوان "العمدة".. يتناول موضوعها "عمدة قرية متسلط" أدي تسلطه وسوء سياسته ، إلي قيام خصومه بحرق وتسميم الدواب في الحظائر وإشعال النار في مخازن القطن والقمح، فاحترقت جميع بيوت القرية بينما وقف هو فوق ربوة عالية يبتسم وسط أعوانه.. ورغم رمزية القصة وغموضها- فإن الملاحظات التي جرت في الندوة كانت كفيلة بلفت نظر رجلي الأمن الذين لا تخلو من وجودهما أي ندوة أو حفل أو مؤتمر؛ فقد اصطحباني بعد الندوة إلي "لاظوغلي" لأجيب علي أسئلة محددة طرحها علي ضابط مباحث أمن الدولة.. ونصحني الضابط برفق في نهاية اللقاء أن التفت إلي الدراسة في كليتي، وأن ابتعد عن السياسة ونقد نظام الحكم.. تذكرت هذه الواقعة فوافقت علي رأي فكري..

يبدو أن رمزي شعر بما أفكر فيه.. فعمد إلي تحويل الكلام ووجهه إلي وجهة أخري فقال :

- عدت من الإجازة أول أمس ، وعندي أخبار عن "حياة الشاهد".

نظرنا إليه بفضول واهتمام.. ثم استحثته عيوننا أن يمدنا بأخبار رفيقة سفرنا أثناء الدراسة وصديقتنا بعد التخرج، لا سيما أن شقيقها أيمن الذي يكبرنا بثلاثة أعوام قوّي هذه الصداقة بحرصه علي أن يشارك في لقاءاتنا وأحاديثنا بين الحين والحين رغم ارتباطه بالعمل في إذاعة "البرنامج الثاني" الثقافي.. استجاب رمزي لنظراتنا فأضاف:

- حياة الشاهد تعاني من ضغط شديد شارك فيه الأهل والمعارف.. تقدم لخطبتها جلال السكري ابن رجل الأعمال المشهور شوقي السكري وهي تعاني من ضغط عائلي قد يؤدي إلى تنفيذ الخطبة.

وقال رمزي أيضًا:

- والدها مصمم علي زواجها منه.

صحت مأخوذا بالخبر الذي نزل علي رأسي كصاعقة محرقة :

- لا يمكن أن يرغمها أحد علي ما لا ترغبه وأنا موجود.

حاصرتني عيونهم بنظرات كشفت عـن إيمـانهم بقـوة علاقتي بحياة الشـاهد، وأكـدت ارتبـاطي بهـا، وسـلمت باستحواذي عليها.. حاولت أن أخفف من وقع صيحتي علـي نفوسهم بقولي :

– أقصد ونحن موجودون.

ولكنهم لم يعلقوا ليتواصل صمت رجـوت أن ينهيـه أحد، فأنا أعلم أنهم واقعون في هواها؛ كـل مـنهم يريـد أن يختص بها، ولكنني في نفس الوقت أشعر أنها مخصصة لي، وسوف تؤول إليّ؛ فقد صدقت نظرتها الأولي التـي مـلأت حياتي فلم أفكر في غيرها طوال السنين الماضـية ، وكانـت تلك النظرة الأولي حـين جمعنـا مكتـب تنسـيق القبـول بالجامعات، و تعززت أثناء سفرنا للدراسة بالقطار من طنطا إلي القاهرة، ومنها إلي طنطا. تطور الشعور بالإعجاب إلـي شعور بالاحتواء والامتلاك. وبدا لـي أنهـا موافقـة علـي "شعوري المتنامي" بل أحبته، وأشعرتني دائمـاً أنهـا تحبـه؛ بهمس صامت عكسته عيناها السوداوان فصـدقتُ، ودائمـاً أصدق ما تقوله حياة الشاهد..

تمنيت أن يكسر هذا الصمت أي صوت أو مشهد ليبدد "أثر" الضجة التي أطلقتها معترضا علي خطبة حياة الشاهد وكاشفاً عن طبيعة علاقتي بها أمامهم لأول مرة.. ويبدو أن هذا التمني قد تحقق بطائرة شاهدتها تلمع في سماء الضفة الغربية، ثم تهبط بسرعة لتقصف بصارخ مخزن ذخيرة كبير يقع خلف موقع مدفعية ٨٥ م القريب من قرية حنديق.. سمعنا صوت الانفجار المدويّ، وشاهدنا الدخان المتصاعد ينتشر في الفضاء..

هرعت إلي المدفع والتصقت به.. بينما كانت الطائرة سكاي هوك الفضية ترتفع وتمضي إلي فضاء البرّ الشرقي. بعد دقائق وردت إشارة بأن المدفعية " حرّة " وقلت في نفسي وأنا اشعر بغيظ قاتل : أدت الطائرة المهمة فجأة وبسرعة وانسحبت في هدوء " دون أن تنطلق قذيفة واحدة.. كيف؟!!..

ضربت رأسي بجسم المدفع مرات حتى سال الدم.. اعتمرت خوذتي لأنني أحسست بأن طائرة أخري سوف تأتى لتضرب الموقع، وإن كنت لا أعلم متي ستجيء؟. هانحن الآن

في انتظار المفاجأة لتلقي " الضربة " بعد الضربة ونحن في حالة دفاع، فمتي نبادر لوقف هذا العبث الشيطاني؟!..

بعد انصراف أصدقائي إلي مواقعهم – تأملت ما جري منذ قليل: كانت المدفعية مقيدة، فسهل علي الطائرة اختراق مراصدنا ودمرت مخزن الذخيرة، وتلقينا بعد التدمير أمرا بأن المدفعية " حرةّ".. فقلت لنفسي : اخترقت دفاعاتنا طائرة واحدة في وضح النهار بينما كانت "المدفعية مقيدة".. أليس ما جري دليلاً علي أن العدو أحسن "الاستطلاع"، ونجح في التنصت، وجمع المعلومات؟، كيف وصل إلي موضع الذخيرة الجواسيس والمستطلعون؟! وهل أنا بقادر علي إزاحة الإحساس بالريبة عن نفسي؟!..

رأيتني في مركز الخطر وبؤرة التهديد، واستبد بي إحساس طاغ وتوقع متنام بأن وراء كل شيء أمامي أو خلفي يكمن جندي معاد أو عميل، كلاهما سوف يوقع بي الضرر، وربما يخرج من الماء الراكد " ضفدع بشري " يستهدف مواقعنا في الليل أو النهار.. نظرت في الماء الفاصل بين

الضفتين وتساءلت بحسرة : متي نحرر هذه القناة؟ وهل يمكن تحريرها بعد مرور عام ونصف علي أسرها؟!

عانيت حتي المساء وفي الأيام التالية من وقْع المفاجأة المدمرة والعجز المزري، والتساؤلات المثيرة للشجن، والقلق المجافي للراحة و النوم.. ما أن أغادر حفرة المدفع لشأن من شئوني حتى أعود بسرعة إليه لألتصق بجسمه الساخن في النهار، والبارد في الليل؛ يمنحني المدفع الاطمئنان رغم خطورته، فهو عدو للطائرات المنخفضة، ولذلك فهو مستهدف من الجو ومن المدفعية الأرضية الصاروخية، ومن القاذفات الجوية الثقيلة، ورغم هذه خطورة قرب خط الذخيرة مني فإنني أحب الالتصاق بالمدفع أو الوقوف بجواره، ولا أدري متي أطلق قذائفه. لم تأت بعد الطائرات المنخفضة. متي تهاجم الطائرات المنخفضة لأفتح عليها نيران مدفعي؟..

(٦)

لاحظت بعد تقدم ليل اليوم العاشر من فبراير– أضواء الدورية الإسرائيلية تصل إلي حافات الساتر الترابي العملاق

فوق الضفة الشرقية.. ومرة رأيتها بالعين المجردة وهي تعبر فوق تلال قصيرة لا يحجبها ساتر، وذلك لتسريب المزيد من الاستفزاز النفسي، وكأنهم يقولون لقاطني الضفة الغربية من العسكريين : انظروا نحن هنا ظاهرون ولا نخشى شيئا؛ نوع من الحرب النفسية للنيل من نفوس القوات المرابطة علي ضفة القناة.. تراقبنا الدورية بثلاث عربات ذات كشافات مبهرة. استفزاز ما بعده استفزاز..

تأملت المشهد وتساءلت بحزن : ألا يمكن وقف هذا الاستفزاز السافر؟، أيمكن ضرب هذه الدورية المستفزة؟، كيف نقبل مسيرة هذه الدورية المثيرة للشجن؟، هل فكر أحد في فتح النار عليها أو إبعادها عن التلال التي لا يخفيها أي ساتر؟. في الصباح نراها واضحة بالعين المجردة وهي تحدث حركة ذات أصوات عادية، ولكن في الليل يتعمدون تكبير الصوت وتضخيمه بسيارة مصاحبة تحمل براميل فارغة تصطك ببعضها، لتحدث دويا يعلن التحدي ويجهر بالاستفزاز.. كم أتمني وقف هذه الدورية بهجوم خاطف يعبر عن غضبي ورفضي..

ماسورة المدفع موجهة إلي الفضاء لشرقي، وأقف أنا مستغرقا في تساؤلاتي المتلاحقة.. شعرت بصداع خفيف فأسندت رأسي علي جسم المدفع، وأغمضت عيني، ربما للحظات أو لدقائق.. رأيتني تحت النجوم أغادر فجأة الحفرة حاملاً بندقيتي " النصف آلية " ومعتمرا خوذتي.. رأيتني أهبط من الهضبة إلي الوادي الرملي في لحظات بلا صوت، كأن طائرة أسقطتني ببراشوت. مشيت بين مواقع جنود مشاة دون أن يستوقفني أو يسألني أحد..

قصدت حافة المياه المتلألئة بالنجوم. نزلت رافعاً سلاحي إلي أعلي وعبرت القناة من غير أن يستوقفني أحد، خرجت من المياه وتسلقت تلا قصيرا لا يوارية ساتر، كمنت خلفه وجهزت بندقيتي.. انتظرت في الظلام حتى عادت الدورية بأضوائها الكاشفة المستفزة المثيرة للغضب، أطلقت رصاصي علي السيارة الأولي لحظة مرورها أمامي. أصبت قائدها وآخر بجواره فتوقفت السيارة تماماً.. ثم أسرعت مغادرا مكاني، وسارعت بإطلاق الرصاص علي السيارة الأخيرة لأصيب جنودها الأربعة ثم استبدلت الخزنة الفارغة

بأخرى ممتلئة، لأواصل إطلاق الرصاص علي السيارة الوسطي.. ثم رأيتني أنسحب سالماً إلي المياه، وجدفت حتى عبرت دون أن يصيبني أحد..

فتحت عيني من غفوتي القصيرة لأجدني واقفاً خلف مدفعي ملتصقاً به. تأملت غفوتي القصيرة التي حفلت بمغامرتي الحُلمية التي أجدها معقولة ومقبولة ولا تحتاج إلي تدبير مضن.. بل مجرد تدبير مع حسن تنظيم لأداء هذه المهمة التي حان الوقت لوضعها موضع التنفيذ..

عدت مرة أخري إلي تأمل ماسورة المدفع المتجه إلي الفضاء الشرقي، ومراقبة أضواء الدورية التي تعلو قمة الساتر العملاق، أو تغطي التلال القصيرة.. وتساءلت في نفسي: ألم أدمر الدورية؟. ألم أقتل جميع أفرادها؟ وقلت بقوة الحلم وسطوته: كيف عادت إلي العمل وأنا الذي قمت بوقف نشاطها إلي الأبد؟ ..

سرعان ما قلت أن "التمنيّ " جعلني أخلط بين الواقع والخيال؟، فمازال الوضع علي الضفة الشرقية كما هو؛ لم

يحدث تغيير منذ تم احتلالها سوي موالاة الاستحكامات الدفاعية، واستمرار تعطيل المرور في القناة. ونالتني حسرة كاسحة جعلتني أواصل ارتيابي في كل شيء أو أحد: وتساءلت بما يشبه الصياح في ظلام الليل وتحت النجوم: هل سيظل "هذا الوضع" قائما إلي الأبد؟! هل يعمل القادة ألف حساب للقنبلة النووية؟! هل تراجع مشروع العبور، وضاعت في الفراغ صيحة الزعيم المهزوم: " ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة "؟، وهمست للنجوم المطلة من وسط الزرقة: هل تصدقين ما قاله الزعيم، ويردده الإعلام، وتشيعه الندوات والمؤتمرات وأبواق الاتحاد الاشتراكي؟!..

فتحت الترانزستور ورحت استمع بدهشة إلي برنامج "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة" وندوة صوتية تشرح وتفسر وتحلل قول الزعيم : من الضروري إعداد "لجان المواطنين من أجل المعركة" وعلقت بقولي: "اللجان" سوف تفسد المعركة، لا يحتاج كسب المعركة إلي "لجان". في وطني إذا أردت تميت مشروعا فاعرضه علي لجان. كم من الأموال أهدرت بسبب اللجان. معركتنا مع العدو لا يفيدها إلا رجال

يحملون السلاح ويحسنون استخدامه، كما استمعت إلي أقوال أرشيفية للزعيم، بدا لي أنها جرعات طمأنة لتسري في سواعد المواطنين كي يكفوا عن ملاحقته بسرعة تحرير الأرض..

وسمعت في إذاعة ليبيا أغاني عن حرب ٥٦ "الله أكبر فوق كيد المعتدي"، و"دعم سمائي فسمائي محرقة، دع قناتي فقناتي مغرقة"، وتعالي صوت سيد مكاوي بالغناء: "الأرض بتتكلم عربي". وفجأة ضربت رأسي في جسم المدفع وأنا أقول متى نعبر هذا الساتر الكريه، الشاهد علي العجز والهزيمة؟!..

حل موعد مراقبة الفترة التالية "الشنجي" في الساعة الرابعة صباحاً، سلمت جودة البنهاوي آلة الإنذار الخشبية وتمنيت له وقتا طيبا، ثم مضيت إلي ملجأ الأفراد، آويت إلي فراشي المشمع. جلست في هدوء مجاوراً " ناجي فهيم " الذي يغط في نوم عميق.. بعد قليل أسندت ظهري إلي جدار الملجأ هممت بإشعال سيجارة من علبة ناجي، لكن سرعان ما عدلت مراعاة للنائم.. ثم انزلقت فوق المشمع وتوسدت ذراعي الأيمن. مضي وقت وأنا بين اليقظة والنوم..

وجدنني أفكر في فراش غرفتي بمنزلنا، في مدينتي المباركة بالبدوي، وفكرت في حياة الشاهد: أحب أن أراك يا حياة الآن. لا أنسي معني عينيك وأنت واقفة مع أيمن فوق رصيف محطة طنطا، لوداعنا قبيل تحرك القطار إلي الإسكندرية، لتسليم أنفسنا إلي منطقة التجنيد. قالت لي عيناك كلاماً لا يمكن نسيانه. أنت يا حياة ملء القلب والخاطر. قال رمزي إنك مكرهة علي قبول خطبة جلال السكري، هل أنت يا حياة مستعدة للمواجهة؟، أعلم أنك صلبة المراس، ولن تستسلمي بسهولة..

ها أنا ذا أستحضر وجهها الدائري المستدير، أري الكلمات تنساب نحوي من فمها القرمزي البديع. أنصت واستعذب وقعها في أذنيّ.. صدقت عينيك قبيل تحرك القطار بأنه مهما بعدت فإنني لن أخذلك، فأنت قدري ونصيبي، ولن أقبل بأحد سواك. صدقت عينيك يا حياة وأنت في وداعنا علي رصيف المحطة. قالتا لي : سافر وحارب، وحين تعود ستجدني في انتظارك. أنا الآن يا حياة عاجز عن نجدتك، ولا يمكنني أن أغادر الموقع، فنحن في حالة طوارئ قصوى،

وإجازتي المقررة بعد أسبوع، ولا أحد يعلم متي ستخف الطوارئ لتسمح القيادة باستئناف الإجازات..

تصورتُ حياة – فجأة – وهي تحني رأسها بالموافقة أمام ضغط والدها الحاج لطفي الشاهد تاجر الغلال الصعيدي المعروف.. حقا إنه يسلم بزمالتنا وصداقتنا، ودائما ما رآنا في منزله عندما نلتقي بشقيقها أيمن، لكن لن يسلم أبدا بفكرة "الانتظار" إلي ما بعد "إزالة آثار العدوان" التي وصف بها الزعيم كارثة الهزيمة المروعة.. إنه غير واثق في قول الزعيم، وهو علي حق في انعدام ثقته، الناس في وطني بريفه وحضره، قراه ومدنه، صاروا يتشككون في الشعار الذي صار مجرد أوراق كبيرة وصغيرة معلقة علي جدران الشوارع، ومحطات السفر، وأبنية الاتحاد الاشتراكي، وعلى جوانب سيارات النقل الجماعي.. يؤكد شكوكهم "النكت الكثيرة" التي لا تتوقف ولا تقل منذ الانسحاب العشوائي والهزيمة المروعة في يونيو ٦٧. الناس في وطني يستقبلون الجنود ويشيعونهم بنظرات تحمل معاني التهكم والضيق

وخيبة الأمل. فكيف لي أن أطمئن؟، لا أتوقع مع استمرار التهكم والضيق وفقد الثقة، أن يغير تاجر الغلال الصعيدي موقفه؛ أراه من هنا يزداد عناداً ورفضاً.. أبوك يا حياة صعيدي ولا يقتنع إلا بالمواجهة المقنعة..

أنا الآن يا حياة عاجز عن "العودة" لأحمله علي الرضا والقبول.. أنا الآن انتظر التصريح بإجازتي الرسمية بعد أسبوع، انتظر بفارغ الصبر. قبل أسبوع محال أن يصرح لي أحد بالمغادرة ولا أحب الاستثناء، رفعت القيادة الاستعداد إلي الدرجة القصوي ومحال أن أغادر موقعي. عليك بالمواجهة يا حياة، ارفضي وصممي علي الرفض حتى أعود.. إني عاجز عن التصرف وأنا هنا، وليس أمامي إلا الاعتصام بالصبر، وربما تخفض درجة الاستعداد وإن كانت الظواهر حولي لا تؤدي إلي التخفيض المنشود. تواصل كلامي الصامت حتى غلبني النوم مع بدايات النهار الذي تسلل ضوؤه إلي الملجأ المواجه لحفرة مدفعي تتجه ماسورته إلي الفضاء الشرقي..

(٧)

استيقظت في السابعة صباحاً علي صوت الرقيب أول "عزت الأسيوطي " ينادي اسمي.. هرعت صاعدا من الملجأ. أخبرني بالتوجه إلي مقر النقيب جمال العارف حسب الأمر الصادر إليه عبر التليفون، يتولى النقيب جمال قيادة فصيلتي الـــ م / م، والـــ م / ط اللتين تعتمد عليهما بشكل أساسي سرايا الكتيبة..

اعتمرت خوذتي وعلقت بندقيتي النصف آلية في كتفي.. نزلت من الهضبة، واتخذت طريقي إلي المقر المحصن بمغارة ببطن جبل يبعد عن مواقع الهضبة بحوالي مائتي متر. فوجئت عند وصولي برمزي الحديدي، وفكري الجبالي، وعدلي قلدس.. اصطففنا جميعاً بأمر من الرقيب أول متولي الجمال..

خرج من باب المقر النقيب جمال الذي اعتاد أن يظهر في جنبات الكتيبة برداء الصاعقة. تحدث إلينا بعض الوقت عن الموقف في الجبهة، وكيف أن مواقع الكتيبة معرضة لعدوان شامل في أية لحظة. وقال :

- الهدف من تجميعكم هو اختبار مدي استعدادكم لعملية خاطفة.

نظرت مستبشرا في عيني الضابط الشاب للحظات ثم سارعت إلي القول :

- أنا شخصيا رهن الإشارة.

وعقب فكري بصوت قوي :

- وأنا مستعد للانضمام إلي أي عملية تنال من العدو.

وأبدي كل من رمزي وعدلي الموافقة علي أي شيء تأمر به القيادة وتخطط له، ما دام في صالح القوات الرابضة علي الضفة الغربية، وقال الضابط جمال بصوت حاسم :

- اخترتكم للقيام بعملية عبور خاطفة الليلة لتدمير الدورية المستقرّة، وسأوافيكم بالتفاصيل.

سكت برهة ثم أوصي بضرورة التكتم، لأن نجاح العملية متوقف علي السرّية التامة. وقال : ورغم ثقتي في وعيكم العسكري فإن العدو دائم المحاولة لاختراق تفكيرنا

وتحركاتنا.. توقف للحظات ثم قال بصوت مفعم بالأسي والأسف:

- للعدو عملاء من المدنيين.. يجمعون المعلومات في فترات الراحة والهدوء، أعلم أن بعضكم ينزل إلي قرية حنيدق أحيانا، ويجالس بعض أهلها، فاحذروا. العدو يأخذ معلوماته من حسني النية.

وأضاف بصوت مملوء بالثقة :

- قيادة اللواء وافقت علي انضمامكم مع آخرين إلي العملية، لعلمها المسبق بكفاءة قدراتكم العقلية والبدنية.. انصراف.

كم سعدت بالاستماع إلي النقيب جمال، وهو يخبرنا بثناء قيادة اللواء علينا. وقلت في نفسي: إن رغبتي العارمة في منع الاستفزاز المتواصل سوف تتحقق، ولم أكن برغم الحلم أتصور أنني سأكون ضمن مجموعة ضرب الدورية بمثل هذه السرعة، لقد تدربنا لمدة أسبوعين في وحدة الصاعقة بعد أن اجتزنا فرقة الـ ١٢,٧، وعرفنا في الوحدة

أساليب التعامل مع العدو في إطار إعداد الكمائن، أو الهجوم المباشر الخاطف، وضرورة إحداث خسائر جسيمة، والارتداد بأقل الخسائر..

ها نحن الآن ننخرط في مجموعة تضم خمسة عشر رجلاً، ويقودنا النقيب جمال. طلينا وجوهنا باللون الأسود، مشينا حوالي ثلاثة كيلو.. ابتعدنا عن الساتر العملاق كثيراً، تجاوزناه بمسافة طويلة، ثم أمرنا الضابط بالوقوف في منطقة تواجه تلالا رملية خالية من أي ساتر يمكن صعودها بعد أن نعبر مياه القناة..

رأينا أثناء انتظارنا ستة أشباح لرجال يحملون قاربين مطاطين.. سرعان ما انزلق القاربان بهدوء في المياه، يحمل كل قارب سبعة جنود، ويقودهما الضابط جمال الذي تصدر القارب الأول. وأما القارب الثاني الذي ضمني فلم يكن فيه من أصدقائي سوي " فكري الجبالي "..

جدفنا ببطء حذر حوالي عشرين دقيقة في الظلام تعلونا سماء قليلة النجوم حتى وصلنا إلي الضفة الشرقية.

تسللنا بخفة وسرعة إلي المرتفعات المتناثرة.حدد الضابط المكان الذي سنكمن فيه، والذي سبق لقوة الاستطلاع أن عينته لنا من قبل، وكنا ننتظر عودة الدورية المستفزة..

أثناء الانتظار لم أفكر في شيء إلا في الكارثة التي أصابت الوطن في مقتل. تخايلت لعيني صور متعاقبة : هاهم الجنود العائدون يتوارون بسبب ازدراء الأهالي وسخريتهم، وهذا والدي الحاج أنور المراسي يجهش بالبكاء وأنا عائد من القاهرة بعد أداء امتحان اللغة العبرية. ويقول في أسي: مصر ضاعت يا ثابت، وها هو الراديو الأثري في صالة المنزل ينطلق منه صوت مذيع إذاعة لندن ليؤكد خبر مهاجمة جميع المطارات المصرية، وتدمير الطائرات وهي رابضة فوق الأرض. وهذه صورة الزعيم يعلن تحمله المسئولية ويقرر التنحي عن الرئاسة بصوت متهدج، وهذه صورة المشير عامر الذي انتحر أو اغتيل، وها هي صورة حياة الشاهد تنظر إليّ بقلق وأنا أحمل ورقة استدعاء للتجنيد الإلزامي بعد تخرجي بستة شهور، وهذه صورة الزعيم، وقد عدل عن التنحي بضغط الجماهير في ٩، ١٠ يونيو - يحاول أن

ينهض من جديد و.. و.. ولكن ثمة صورة، غلبت علي جميع الصور التي أراها الآن، وهي صورة جزء كبير من الوطن المأسور: سيناء.. وتعطيل القناة. صارت سيناء في ستة أيام بحوزة العدو.. أي كارثة!.. وأي مصيبة قد حلت بوطني !..

لاحت من بعيد إضاءات الكشافات الباهرة المثبتة فوق أسقف السيارات الثلاث. تنقلت ببطء الإضاءات فوق التلال المرتفعة والمنخفضة المطلة علي حافات القناة. وكنا نكمن خلف ثلاث تلال متباعدة انتظاراً للحظة المحددة؛ كانت الأوامر ألا نهاجم إلا عند العودة، فعبرت السيارات الثلاث دون اعتراض..

مر وقت ناهز نصف ساعة ونحن كامنون نترقب في صمت وسكون اللحظة الحاسمة.. وربما حام حولي شبح فشل العملية وسقوطنا بين قتيل وأسير وجريح، نتيجة نشاط "الموساد" عن طريق العملاء والجواسيس المبثوثين بين المدنيين والعسكريين، لكن ثقتي في سلامة الخطة بدد هذا الاحتمال الذي خطر بذهني للحظة سريعة..

مرّت نصف ساعة تقريباً ونحن كامنون خلف التلال، حتى إذا اقتربت السيارات الثلاث وصارت في مرمانا نفذنا العملية؛ بضرب السيارة الأولي والأخيرة بقنبلتين، علي حين تقدمتُ ومجموعتي إلي السيارة الأولي التي قتل منها اثنان بينما استلم جندي برفع يديه إلي أعلي، أسرعت نحوه وأسرته في الوقت الذي كان الضابط جمال ومجموعته يتبادلان إطلاق الرصاص مع من ظل حياً بجوار السيارتين الثانية والثالثة، ثم حل صمت لدقائق قليلة انسحبنا بعدها إلي الشاطئ وبجريحين من جنود العملية، ونزلنا إلي القاربين لتعبر الماء إلي الضفة الغربية، بينما كان الأسير في حوزتي..

(٨)

اقتدت الأسير الموثوق إلي مقر القيادة ببطن الجبل. أثني عليّ النقيب جمال وعلي باقي المجموعة.. تأملت الأسير تحت ضوء مصباح يتدلى من السقف.. شاب صغير ربما تجاوز العشرين بقليل. عرفت اسمه عندما حاوره الضابط جمال بالعبرية التي يتقنها، وأتقنها أنا أيضا: "ليفي مزراح"

نظراته منكسرة، ومستجدية، ومسترحمة. طمأنه الضابط جمال وهو يسجل معلومات أدلي بها خاصة بوحدته العسكرية، ومكانها، وعدد أفرادها. ومدة وجوده في سينا ومشاركته أو عدم مشاركة في ٦٧. أجاب "ليفي" علي الأسئلة بسهولة دون ضغط، لكنه كان يرتعش بشدة. وقال الضابط جمال بالعبرية يهدئ من انفعاله :

- أنت أسير حرب.. وسوف تعامل بموجب اتفاقية جينيف.

لكن الجندي كان في غاية الانهيار.. وردد بعبرية ثم بعربية:

- لا تقطعوا رقبتي أرجوكم.. أمي ستحزن عليّ، أمي ستموت لو لم أعد.

فقال الضابط جمال :

- نحن لا نقتل الأسري.. ستخضع للتحقيق وسوف نحافظ عليك.

فبادر بصوت مرتعب :

- قالوا إنكم تثأرون لقتلاكم في ٥٦ و٦٧. أنا كنت في العاشرة من عمري في حرب ٥٦، وجندت في سبتمبر ٦٧.

- اطمئن، فلن يقتلك أحد.

رثيت للجندي المرتعب رغم كراهيتي له، ولكنني لم أتمن له الإيذاء، فهو محكوم بأوامر، واعتقاد تربيّ عليه منذ طفولته، وهو أسير حرب يمكن أن نرسل عن طريق إحسان معاملته رسالة إلي قاتلي الأسري، ولكن ما لبثت أن تساءلت: هل سيفهمون الرسالة المؤمّنة، والملتزمة بالمواثيق والأعراف والأخلاق، فيحمدوا عملنا ويقدروه ويتوقفوا عن إجرامهم؟..

قلت في نفسي : لا أظن.. إنهم بمجرد استلامهم الأسير سيواصلون القتل والتنكيل، وهل سيفهمون أن الرسالة صادرة عن مركز قوة؟ أم سيجدونها ضعفا وخوفا وتخاذلا؟، وقلت في نفسي أيضا : إن الدرس المرجو من الأسر هو كسر صلف العدو وهزيمته، وطرده واستعادة الأرض المأسورة..

عدت إلي موقعي بسرعة لأراقب من الهضبة ما يجري في الظلام علي الجانب الشرقي. شاهدت قنابل مضيئة بدت لي أنها تساعد في إخلاء المنطقة من الجرحي والقتلي، كما شاهدت طائرات هليوكوبتر تهبط وترتفع، وسمعت أصوات براميل فارغة ترتطم بأخرى فوق عربات كبيرة تجري من اليمين إلى اليسار مرات ومرات..

أثناء المراقبة فكرت في نظرة الأسير الشاب الذي اقتادته عناصر من مخابرات الفرقة.. وفكرت في أسرانا الذين تم رميهم بالرصاص، وسحقهم بالدبابات بدم بارد وقلوب صخرية.. ولكني لم أفكر أبدا في أن أؤذي أسيرا أو أؤيد قتله. فنحن لا نقتل الأسرى، واستبعد أن مخابراتنا سوف تؤذيه، إنهم يجرون معه التحقيق اللازم، وبعده يحتفظون به في مكان أمين انتظار لعملية تبادل الأسري في الأيام القادمة أو بعد انتهاء الحرب..

استيقظت علي رفع التأهب إلي الدرجة القصوي "ج"، فقد أفادت وحدة " استطلاع الجبهة " أن العدو ينوي إجراء

عمل ما رداً علي نجاح عملية تدمير الدورية، ربما يكون العمل عبوراً جزئياً محدودا سريعا وخاطفاً، وربما يطلق قنابل من مدفعيته طويلة المدى، ويحتمل أن يكون الرد بهجوم جوي علي المواقع الأمامية..

فكرت في الاحتمالات الثلاثة بعض الوقت، ولكنني ملْت إلي وقوع الاحتمال الأخير وهو الهجوم الجوي الكاسح. لم أجفل ولم أشعر بالتخاذل والوهن.. بل إنني قلت لنفسي : إن معركتي مع الطيران ستبدأ الآن. كم تذكرت صور الطائرات التي غطت جميع مطارات الجمهورية في وقت واحد في يوم ٥ يونيو فدمرتها وهي رابضة فوق الأرض.. تذكرت صور الغارات الناجحة التي طبعتها في ذهني تعليقات إذاعات لندن وإسرائيل وصوت أمريكا، وكم أصابني الهلع وأنا وغيري نري مدي عجز قواتنا المسلحة عن مقاومة الطائرات المعادية، وكم تساءلت: كيف تحارب الجيوش الحديثة في أرض مكشوفة في الغالب بدن حماية جوية؟! ووجدتني رغم هذا أقول لنفسي وأنا أهرع وألتصق بمدفعي: ها هي حربك يا ثابت تبدأ الآن..

لم يمض زمن طويل علي التصاقي بمدفعي حتى سمعت صوت عبد التواب السويفي يصيح منذرا بمجيء طائرات تأتي من الشرق، ففتحت نيران مدفعي في اللحظة التي عبرت فيها القناة ثلاث طائرات. رأيت إحداها تسقط مدمرة وسط الحقول والزراعات الخضراء الواقعة خلف الهضبة بجوار القرية.. واضطرت الطائرتان الأخريان العودة، فكانت أحداهما في مرمي مدفعي فأفرغت في بطنها عشر طلقات، فاتجهت إلي الجانب الشرقي والنار مشتعلة فيها، ولكن الطيار هبط بالبراشوت وسط قوات المشاة المتاخمة لشاطئ القناة فتولت أسره، بينما هربت الطائرة الثالثة نحو عمق الشرق..

ربت ماسورة مدفعي وقبلتها بامتنان وحب وإعجاب. غمرتني أحاسيس الراحة والسعادة بأول مقدمات ثأر طال انتظاره، رغم أني أوقن أن هجمة أخري سوف تحل بعد قليل بهدف "دكّ مدافع الهضبة" التي تصدت للغارة، ولذلك لم أغادر موقعي، وازددت التصاقاً بجسم مدفعي المبارك. أحسست بالاطمئنان وأنا واقف خلفه لا سيما أن أطقم المدافع

الأخرى متأهبة لإطلاق قذائفها لحظة الهجوم المتوقع.. وها أنا ذا أري شعبان الفيومي، ومسعد الرفاعي، وصبري الويشي في حالة يقظة وانتباه، يعرفون غدر العدو ومفاجآته. صحت من موقعي مخدراً.

– اليقظة.. اليقظة، سوف يأتون.. الطائرات سوف تعود للهجوم. أنا مستعد. أنتم مستعدون.

استمعت إلي صدي صوتي يجلجل في الفضاء الصامت، ولاحظته يعبر إلي الضفة الأخرى وهو مازال يجلجل، أحببت عبوره ليعلم المختبئون خلف الساتر العملاق – أن "٦٧" لم تعد مثبطة لأحلام التحرير، ما حدث قد حدث، ولن يؤثر فينا ماض رديء نحن الآن تجاوزناه.. حربنا بدأت ولن تتراجع حتى يتم تحرير هذا الجزء المأسور..

كما توقعت، فقد أبلغتنا القيادة بعد غروب الشمس مباشرة أن سربا من طائرات العدو يتجه إلي القطاع الأوسط. في ثوان استعدت الرشاشات والمدافع المضادة للطائرات ٨٥م، ١٣٠م و١٢,٧ قبل أن يجتاز السرب القناة.. ثم انطلقت المدافع في اتجاهه وهو يطلق صواريخه..

أطلقنا دفعة رصاص غزيرة من مدافعنا الأربعة علي بطون الطائرات المهاجمة، فتمكنتُ من إصابة واحدة شاهدتها وهي تتهاوى خلف الساتر العملاق، بينما تمكنت طائرة من تدمير موقع المدفع الثالث وإصابة حكمداره عريف صبري الويشي ورفيقيه موسى حبشي، وسامي إسكندر، ثم مضت إلى جهة الشرق وهي تحلق علي ارتفاع عال للغاية..

لم تنخفض درجة الاستعداد إلا بعد ظهر اليوم التالي، ليشهد باقي اليوم حالة هدوء حذر، ومع ذلك صعد إلي الهضبة قائد الكتيبة ليتفقد الهضبة، حيث تم إخلاء الموقع من الضحايا، وإعادة تجهيزه ووضع مدفع جديد تولى قيادته عريف صلاح الصاوي واثنين من الفصيلة..

نال الحزن منا جميعا.. ونحن نشهد عملية تجهيز الموقع، وربما خف حزني قليلا حين عرفت أن الغارة أصابت مواقع أخري في ك "٥٠٠"، و ك "٥٠٢" وقلت في نفسي : إنها الحرب، لابد فيها من ضحايا وها هو العدو قد فقد ثلاث طائرات في أقل من يوم، وهو فَقْد موجع لن يجعله يكرر المحاولة في القريب..

استدعائي قائد الكتيبة في العاشرة صباحاً في مقرة الذي يبعد عن الهضبة بحوالي خمسمائة متر، استقبلني بحفاوة وأثنى عليّ، وأعلمني أن قيادة اللواء وقيادة الفرقة تقدر دقة تعاملك مع الطيران المهاجم، ومشاركتك الناجحة في تدمير الدورية، وقال :

- تقرر ترقيتك إلي رقيب أول، لتقود مواقع الهضبة، ومنحك إجازة لمدة عشرة أيام ابتداء من الثامنة صباح الغد.

قلت في نفسي: كيف أسعد بالترقية والإجازة الاستثنائية بينما لا تزال بذهني صورة موقع صبري الويشي وزميليه: موسى حبشي وسامي إسكندر، صار الجميع أثرا بعد عين. أي سعادة بالإجازة الاستثنائية والترقية وأنا أراهم يجمعون أشلاءهم المتفرقة هنا وهناك؟! كيف أسعد يا سيدي بالترقية والإجازة..

وقال القائد :

- الجندي الذي أسرته يدلي بمعلومات خطيرة، وتأكد احتراق الطائرات الثلاث التي أصبتها، وأحد الطيارين في حوزة المخابرات الآن.

قلت بحزن :

- لا أحب مغادرة موقعي، ولا الابتعاد عن الهضبة، فسوف يأتون.

فقال بحسم :

- - هذه سياسة الفرقة ولابد من تنفيذ الأوامر.

قضيت ليلي مسهداً أفكر في صبري الويشي وموسى حبشي وسامي إسكندر، الثلاثة مؤهلات متوسطة صغار السن، تذكرت قول صبري مرة إنه أكبر إخوته وأخواته، والدي يقترب من الستين وينتظر انتهاء الحرب لأخفف عنه الأعباء، أخواي مازالا في الجامعة، والبنات الثلاث في المرحلة الثانوية.. وحضرت بذهني صورته وهو يطلعني علي خطاب سوف يرسله إلي والده وطلب مني أن أقرأه.. بل وألح عليّ أن اقرأ.. وبعد قراءته رجوته أن يكتب خطابا

آخر، لأن الكلام يا صبري يثير قلق والدك، دعة يحيا علي الأمل لتربية إخوتك، فوافق وسلمه لي وطلب أن أحتفظ به وقال :

– إذن خذه واحتفظ به عندك.

ها أنا ذا الآن استخرج الخطاب من حقيقة صغيرة بمخلاة مهماتي.. وها هي سطوره تعارض بصري تحت ضوء كشافي الصغير.. توقف بصري علي هذه السطور: "أبي العزيز: ليس في حياتي هنا ما يدعو إلي التفاؤل. أشعر بأنني سأموت، ولكنني لست خائفاً من الموت، وإنما أنا خائف عليك عندما يبلغك خبري، ولا أريد منك أن تنتظر عودتي، لأنني لن أعود هذه المرة. الموقف هنا أخطر من أن يتصوره أحد. "روحي علي كف عفريت"؛ سوف تبعثرني قذيفة مدفع أو صاروخ طائرة مهاجمة. لا تحزن إذا مت..

كم أود أن أكون إلي جوارك، وكم رغبت في تنفيذ رغبتك في الاقتران بابنة عمي عبير، ولكنني لن أستطيع أن أنفذ رغبتك.. ساعدها علي أن تقترن بآخر غير مجند.

انتظارها لي غير مجد. أخبرك بأنني أكن لك أعظم الحب، ولكن المستقبل مظلم، فأنا محكوم علي بفناء سيتحقق بين لحظة وأخري. ربما يحدث اليوم أو غدا، أو بعد لحظات، أو وأنا أكتب لك الآن.. لا تخبر أمي بما جاء في خطابي حتى لا تقلق. دعوتي لكما وإخوتي بالأمن والأمان. صبري"..

أعدت قراءة الخطاب مرات ومرات وأنا أفكر في وقع الخبر علي أسرة صبري.. وغالبني النوم وغلبني وأنا غير سعيد بالتقدير الذي حظيت به من القائد. وفي الصباح كنت في مقر الضابط جمال الذي سلم لي التصريح بعشرة أيام وتمنّي لي إجازة سعيدة.. عدت إلي الملجأ وارتديت بدلة الخروج الشتوية الكمونية. اتجهت إلي سيارة لوري كبيرة كانت تقف أسفل الهضبة.. ركبتها مع آخرين بعد أن عرفنا أنها تقصد الإسماعيلية..

شملني وأنا في القطار المتجه إلي القاهرة خدر رأيتني خلاله وأنا اقتاد الأسير ليفي وهو موثوق اليدين. ولاحظت في عينية نظرات انكسار ذكرتني بنظرات شعبان الفيومي ومسعد

الرفاعي اللذين شهدا مأساة الانسحاب العشوائي، وعانيا من المطاردات في الصحراء مدة عشرين يوماً اضطرا أثناءها إلي أكل هوام الأرض وشرب بوليهما، وعاد كل منهما إلي زوجته الشابة متورم القدمين.

ورأيت في خدري حياة الشاهد وهي تودعني في ٦ يناير ١٩٦٨ مع شقيقها أيمن علي رصيف محطة طنطا، قبيل تحرك القطار إلي الإسكندرية في رحلة لا أدري متي ستنتهي، ورأيت أمي وهي تضمني إلي صدرها بحنان وتهمس في أذني طالبة مني أن أعود بشقيقي الضابط الغائب عادل الذي لم يعد من حرب ٦٧حتى الآن، ورأيت والدي وهو يشد علي يدي ويدعو لي بالنصر علي الأعداء.. ورأيت أصدقائي : فكري، ورمزي، وعدلى، ونحن نستوعب دروس التدريب علي السلاح في المعادي، ثم ونحن نتدرب علي حرب "العصابات" و "الكمائن" في وحدة "الصاعقة"..

(٩)

توقف القطار في محطة مصر فأفقت من شرودي وانتبهت من غفوتي. غادرت العربة بسرعة قاصداً شباك

التذاكر.. قطعت تذكرة لأستقل القطار الذي سيغادر بعد نصف ساعة إلى مدينتي التي كم اشتاق إلي معالمها وأهلها، و"حناطيرها" التي تجرها الخيول، وترعتها الواسعة التي يطل عليها منزل آل الشاهد..

وقفت بحوار الحائط الذي تعلوه الساعة انتظارا للقطار الذي لم يصل بعد إلي المحطة. جعلت أتامل الوجوه المقبلة والمدبرة : لاحظت في الوجوه عيونا ذات نظرات غير مريحة خالية من الود، وتبرز فيها معاني الاستنكار والضيق بكل عسكري عابر أو واقف يرتدي البدلة الكمونية أو الكاكية مهما كانت رتبته..

قلت في نفسي: رغم مرور عام ونصف.. ينظر الناس في وطني إلي البدلة العسكرية باستنكار. تصورت أن أخبار نجاح المقاومات الأرضية، والقصف المدفعي العابر إلي ما وراء الساتر العملاق، وتدمير الدورية، وإسقاط الطائرات، تصورت أن هذه الأخبار سوف تغير من نظرات أبناء وطني.. فمتي ينال لابسو البدلة الكمونية أو الكاكية الرضا

والقبول؟!، متي تتواري نظرات الاستذكار؟!، ورغم إحساسي بالأسف والأسى فإنني التمس لهم العذر: إنهم معذورون في استنكارهم وغضبهم؛ فقد كان وقع الهزيمة مروعا للنفوس التي امتلأت قبل الحرب بالثقة الزائدة، ومازال بعضهم يرجع سبب الكارثة إلي الجنود المنسحبين وليس إلي القادة الذين مازالوا علي قيد الحياة باستثناء المشير عامر الذي انتحر أو اغتيل، لكن الذين يرتدون الكاكي والكموني الآن غاضبون مثلكم أو أكثر غضباً. لاحظوا أننا أبناء وإخوة وأقارب وجيران. إننا لسنا الأعداء.. إننا هنا وهناك مصممون علي الخلاص. فقط ننتظر اللحظة المناسبة التي تقررها القيادة..

حين دخلتُ عربة القطار الذي سيقلنا إلى طنطا – حدجني جالسون في مقاعدهم بعيون مستفزة سرعان ما تلاشي تأثيرها من نفسي بعدد من الجنود يرتدون الأفرولات الكاكية والبدل الكمونية.. استأنست بوجودهم في مواجهة العيون المستفزة. وبدلاً من أن أستمتع بإحساس التوازن الذي أحدثه هؤلاء الجنود، فإنني سرعان ما تكدّرت بنظراتهم الشاردة في هموم تخصهم، ربما تتوافق مع همومي: الأب

والأم والإخوة، والحب، وغريزة البقاء، والخطيبة، والزوجة الشابة تعاني من الوحدة في انتظار طرقات زوجها الجندي العائد، ولكن ثمة همّ يعلو فوق هذه الهموم وهو همّ تحرير الأرض المحتلة...

ها نحن الآن في مارس ٦٩. مضي عام وستة شهور علي وقوع الكارثة ولم يحدث تقدم أو عبور شامل. ثمة عمليات جزئية تجري عبر ضفتي القناة سواء بالمدفعية أو بالطيران، وبالتسلل خلف خطوط المواجهة. فهل تستمر هذه الحال إلي الأبد؟ كيف نقبل والعدو يمدّ من الساتر العملاق إلي مساحات أخري مواجهة؟!، تستتر خلفه المدافع والدبابات ومواقع الجنود، واضح أنه يكرس لبقائه إلي الأبد..

مضت شهور من السنة الثانية دون حل ليرتفع شعار يروج له الإعلام "اللاّ سلم واللاّحرب": عملية هنا وعملية هناك، واختراق جوي لمجالنا، واحتراق جوي لمجالهم، ولا تبدو في الأفق بارقة أمل للعبور الشامل.. فهل بإمكان حياة الشاهد أن تنتظر سنوات وسنوات؟.. طالبتني عيناها

المتوسلتان بأن أتقدم إلي والدها لخطبتها في إحدي إجازاتي منذ شهور فقلت لها :

- لا يمكن أن يتم زواج قبل التحرير. أنا معرض للإصابة والقتل في أية لحظة.

وقالت بعينها الواسعتين العميقتين:

- أنا محرجة ومضغوطة.

وقالت أمها بحنان واقتناع :

- من الممكن أن يتم الزواج، ونراك في الإجازات.

وقال شقيقها أيمن :

- رأيي أن ننتظر حتى تنتهي الحرب.

ثم سكت برهة وقال :

- ربما يتغير تفكيرك وتفكيرها. ربما تصادف حياة شخصاً له ظروف أفضل.

بقدر ما أعجبت بصراحة أيمن تضايقت منه ونقمت عليه، ورغم ثقتي في اختياري فإنني اعتبرت الاحتمال الثاني

مؤشراً خطيراً يجب عليّ أن أحتشد له واستعد لمواجهته.. وتساءلت أثناء المقابلة : هل كلام أيمن صدي تفكير يتردد في عقل حياة؟..

رغم أن السؤال ظل يتجاوب في نفسي مع حركة القطار الرتيبة، فإنني سرعان ما فكرت في همّ التحرير الملقي علي عاتقي أنا ورفاقي المؤهلين بالعلم والثقافة والتدريب الحديث، لاسيما أن قرارا صدر بنقل الجنود الذين خاضوا حرب "٦٧ " إلي الجيش الشعبي المكلف بحراسة المنشآت المدنية داخل مدن الجمهورية وقراها، لتنحصر المهمة في جنود المؤهلات العليا والمتوسطة. أعلم أن المسئولية جسيمة؛ فقد صار التحرير معلقاً في رقاب الجيش المؤهل..

مرة أخري عدت إلي التفكير في مستقبلي المظلم الذي لا أري في جوانبه أية بارقة أمل في الانتهاء من مهمتي الوطنية المقدسة إلا بعد الانتهاء من حرب تحرير شاملة لا أعرف متي ستكون بدايتها وإن كنت أشعر أن موعدها قريب..

بعد مغادرة باب محطة طنطا - سرت في شارع المديرية برداني الكموني. قبل أن أبلغ ميدان الساعة انحرفت إلي اليسار لأدخل شارع سينما مصر. قطعته بخطوات سريعة حتى شارع غياث الدين الذي أوصلني إلي تقاطعه مع شارع النحاس، وقفت للحظات أتأمل العمارة التي تقطن في طابقها الثاني عائلتي. دلفت من بابها الحديدي القديم إلي السلم الذي أوصلني إلي باب الشقة رقم "٤"، تحرص دائما أمي علي أن تتركه مواربا، فهي في حالة انتظار دائم للغائبين : عادل، وثابت، رغم علمها باستشهاد عادل وبأنني أحصل علي إجازة لمدة ثلاثة أيام كل خمسة وأربعين يوما. أمي كُف بصرها من كثرة البكاء الصامت، تبكي دائما لغياب شقيقي عادل الضابط الذي أفادت القوات المسلحة بأنه استشهد في حرب ٦٧ ومنحت والديّ كل شهر مكافأة الشهيد. هي تبكي دائما لأنها لم تصدق أنه مات.. تقول دائماً إنه حي وسوف يعود، وهي دائما تبكي لغيابي عن عينيها مدة خمسة وأربعين يوماً. أمي كُف بصرها من كثرة البكاء.. قالت مرة :

- أبوك دائما يهلل لما الراديو يذيع الأخبار عن وقوع اشتباك في الجبهة.

وقالت :

- يصفق ويصيح ويقول : اثبت يا ثابت. اضرب يا ثابت. اثأر يا ثابت.

ومرة قالت شقيقتي فكرية التي تكبرني بعشرة أعوام وتقطن بجوار منزلنا مع زوجها وأولادها قالت :

- كم نبهته إلي أن هذا الصوت الحماسي يصيب أمي بالفزع والجزع، لأنه يزج باسمك عند حدوث أي اشتباك أرضي أو جوي، كم نبهته ولكنه لا يستمع إلي أي أحد.

ها أنا ذا أدخل من الباب المو ارب دائما، أراها تجلس فوق الكنبة العتيقة المتصدرة للصالة، قبل أن أبلغ مكانها نادت باسمي وكأنها تراني.

قالت وهي تفتح ذراعيها :

- حمدا لله علي سلامتك يا ثابت.

فأسرعت إليها وارتمت في حضنها، وقبلت رأسها ويديها النحيلتين وأنا أراها لا تبصرني. أدركتْ حين بكيت سبب بكائي، فقالت تهدئني.

- لا تحزن. أراك بقلبي. وطبيب العيون يطمئنني.

وجاء أبي بعد قليل وهلل كعادته ثم احتضنني بقوة وهو يقول :

- أنت تثأر لكل مصر، كلما سقطت طائرة قلت إن ثابت هو الذي أسقطها.

فبادرتُ إلي القول:

- لا يا أبي لست وحدي. رفاقي أيضا يسقطون الطائرات.

وقاطعتني شقيقتي فكرية بدخولها مع أطفالها الثلاثة. حيتني بحرارة، قبلتها وقبلت أطفالها الثلاثة. اقتربت من أمي سلمت، ثم انتحت بي جانباً وقالت.

- دائما تبكي في صمت لغيابك.

نظرت إلي أمي التي لم تعد تبصر وقلت.

- ماذا قال الطبيب؟

- كثرة البكاء تؤخر الشفاء.

رمقت مرة أخري أمي الأمية التي لم تعد تراني إلا بقلبها فأسفت، وتذكرت شقيقي عادل الذي لم يعد أبداً منذ انتهاء حرب ٦٧، تذكرت شبابه وطموحه وجسمه الفارع، وفرحته بتخرجه في الكلية الحربية، وإعجابه ببدلته العسكرية، وبرتبة الملازم، وبنجمتيه الذهبيتين تعلوان كتفيه، وبفخره بأنه يقود دبابة من دبابات الفرقة الرابعة التي ستشارك حتماً في الحرب الوشيكة الوقوع..

تذكرت الجندي أمين وهو يقول: إنه رفض أن ينسحب عندما جاء الأمر بالانسحاب، وتصدي مع دبابتين أخريين لهجمات شرسة بالطائرات والمدفعية. وقال: اضطررت إلي مغادرة الدبابة تحت إلحاحه، وظل يدافع عن موقعه حتى نفذت الذخيرة، ورأيتهم يقتادونه ويضعونه موثوق اليدين

ومعصوب العينين فوق الرمال مع آخرين، وشاهدت "دبابة" تمشي فوقهم، وقال الجندي أمين وهو يسلمني ورقة صغيرة في وسطها كلمتان "أثأر لي":

- كان بطلاً، أمرني وزملائي الثلاثة بمغادرة الدبابة والابتعاد عن الموقع يعد أن أوشكت ذخيرته المحدودة علي النفاد.. وظل هو في مكانه حتى نفدت الذخيرة وتم أسره.

وتذكرت أمي وهي تتلقى خبر استشهاده بعد ستة أشهر من وقف الحرب؛ فقد جاء مندوب من القوات المسلحة وأفاد أن الملازم عادل المراسي شهيد له علي الدولة حقوق، وأن العسكرية المصرية تفخر بثباته وصلابته، وأن الجيش رقّاه إلي رتبة نقيب، وقرر منحه وسام الشجاعة..

لم تستطع أمي أن تصرخ. ويبدو أنها لم ترد؛ آثرت الصمت، فصراخها تسليم بضياع أمل مازالت تنتظره وتترقبه، ولم تفلح معها محاولات إقناعها بأن "عادل" استشهد، وقد تأكد استشهاده يا أمي براوية الجندي أمين. لم تسلم أمي

ولم ترد. تركناها تنتظر عودته فاقتنعنا معها بأنه ربما يكون قد نجا، وسوف يدخل علينا في أية لحظة دائمًا في عيني كلمتان "أثأر لي"..

قصدت في المساء عيادة طبيب العيون : الدكتور رياض عطا، فأكد لي أن الأمل في الشفاء وارد، لكن العلاج سيطول وقال إن تحسن حالتها رهن بتوقفها عن البكاء، ومن الضروري ألا يذكّرها أحد بأهوال الحرب، وعلينا أن نجعلها تعيش علي أمل عودة عادل ما دامت تريد ذلك.. وقال الطبيب.

- إنها تنتظره.. ليكن، وربما كانت رواية الجندي أمين غير صحيحة، أو ربما توهم. ولعل شقيقك وقع أسيراً في يد العدو.. و..

فقلت أقاطعه :

لكن الدولة تصرف بالفعل لوالدي معاش الشهيد.

- شكراً للدولة، لكن لاحظ أن الدولة تريد تأليف القلوب في هذه المرحلة من الاستعداد. إن الدولة مقبلة علي معركة تحرير وأنت أكثر دراية مني.

غادرت العيادة وأنا اشعر بقليل من الاطمئنان مكنني من التفكير في حياة الشاهد؛ ورد وجهها بقوة علي ذهني فشعرت بالتفاؤل، ورأيتني أتجه إلي شارع "سعيد" ثم إلي شارع " حسن رضوان " ففي نهايته منزل آل الشاهد المطل علي ترعة القاصد..

تقدمت من الباب وقد غمرني إحساس بشوق غلاب للقائها، وطرقت الباب بثقة طرقتين وثلاث طرقات مميزة تعرفها حياة وتدل علي هوية الطارق.. انفتح الباب علي وجه مستدير باسم، وعينين عسليتين صافتين، وشعر أسود منسدل سقطت منه خصلات علي خدّها الأيسر. ذكرتني بالقمر. اتسعت ابتسامة القمر وهي تمد يدها مرحبة، استبقيت كفها الصغيرة للحظات تبادلنا خلالها الضغط علي كفينا، ثم سبقتني إلي حجرة الجلوس وهي تنادي علي شقيقها أيمن الذي سرعان ما انضم إلينا. جلسنا بعض الوقت.. ثم حضر والدها الحاج لطفي الشاهد بصحبة والدتها هند الطيبي..

حل صمت بعد احتساء الشاي وتناول فطائر صغيرة.. تأملت الوجوه الأربعة فأبصرت، سحابة قلق تكسوها، شعرت

بهزةّ خفيفة أسلمتني إلي تساؤلات بداخلي ظلت تتكاثر بسرعة شديدة: لماذا حرص الجميع علي التجمع في وقت واحد؟! إنهم يعلمون أنني وحياة متواعدان علي الاقتران منذ سنوات، فكيف سمحوا لشبح التراجع أن يحل علي المكان؟!، هل ضاقوا بالانتظار فقرروا التحلل من المباركة والوعد؟!، وماذا بقلبك المحب يا حياة؟.. هل أنت باقية علي العهد؟، أخضعت للضغط فتمت موافقتك علي جلال السكري وتخليت عني؟، وبماذا أفسر حرارة استقبالك لي منذ قليل؟!..

أوقف نشاط أسئلتي صوت والدها..قال الرجل بنبرة هادئة ممزوجة بالمودة بينما أطرقت حياة، وتحاشى أيمن النظر إليّ، علي حين بدا في عيني والدتها الحزن والتردد. قال الحاج لطفي:

- واضح أن الوضع سيطول، والمستقبل غامض، والانتظار ليس في صالحها.

سارعت إلي القول :

- نحن متفقان علي الانتظار.

- العقل يقول غير هذا. يجب إعادة النظر في الوعد والاتفاق والعهد.

فهمت الرسالة فقلت لنفسي: التصميم علي التراجع واضح. وليس ثمة شبح للتراجع. بل إن القرار متخذ، ولم يعد أمامك إلا الصبر وانتظار ما سوف يصرح به.. وسمعته يقول:

- المصلحة تقضي بأن نفك الوعد؛ مضت أربع سنوات منذ تخرجك وهي تنتظر، ويطلبها كثيرون، ظروفهم المادية أفضل. وسبق أن أدوا الخدمة العسكرية.

أوجعت قلبي صراحته، جف حلقي وتلاحقت أنفاسي، تطلعت إلي وجوههم فلم أر عيونهم؛ كانوا جميعا مطرقين في انتظار كلامي.. اغتصبت بضع كلمات شعرت أنها صادرة عن شخص آخر غيري، قلت وأنا أركز بصري في شعر حياة التي مازالت مطرقة:

- يمكن تدبير الأمر و..

فقاطعني الرجل بصوت أشد صراحة وقسوة :

- نحن لا نقبل؛ فأنت في خطر لا نعرف متي سيزول.

وأضاف الرجل :

- سبق وأن طلبها واحدًا بعد الآخر أصدقاؤك : فكري ورمزي وعدلي. الواقع أنني أحببتكم جميعاً، اعتبرتكم إخوة لأيمن وحياة، سمحت لكل واحد منكم أن يفاتحني، ولكني لم أجب طلب أحد، فنهضت منزعجاً وأنا أشعر بضربة حجر فوق رأسي، وقلت:

- حضروا جميعًا لخطبة حياة؟!

- نعم.

فسارعت بتوجيه نظراتي إلي حياة التي رفعت رأسها، فرأيت في عينيها معني طمأنني وخفف من وجع قلبي، وألم رأسي.. قلت وقد استعدت بعض الثقة :

– القرار إذن يعود إلي حياة.

فأسرع قائلا :

– القرار اتخذناه؛ وافقنا علي خطبتها لجلال السكري.

عاودني وجع القلب، ازدادت ضرباته. تضاعف توتري واشتد صداعي.. وشملنا صمت ثقيل للغاية، ولكني لمحت في عينيي حياة الموافقة علي الانتظار، والتصميم علي الوعد، والإبقاء علي العهد. وقالت بعينيها العسليتين المبشرتين: اطمئن، تفرغ لمهمتك المقدسة واطمئن. ولكنني تساءلت: كيف تسني لأصدقائي أن يتقدموا لخطبة حياة وهم يعلمون أن صلتي بها متميزة؟، ألم يلاحظوا تقاربنا أثناء السفر وعندما يجمعنا منزلها بحضور أيمن؟! وعجبت أن كل واحد منهم أخفي مشاعره، وكتم رغبته، لقد نجحنا جميعا في حجب مشاعرنا فلم يتكلم عنها أحد منا في جلساتنا إلا عندما أخبرنا رمزي منذ أيام بأن جلال السكري تقدم لخطبة "حياة الشاهد".. كيف استطاع كل واحد منا أن يخفي عن الآخر رغبته في الاقتران بحياة؟!، ما الذي دعاهم إلي التوافد عليك

يا حياة؟، هل رأوا منك تشجيعاً علي التقدم؟، هل جعلت الأربعة علي محك واحد؟!، هل منيت ووعدت كل واحد من وراء الآخر؟! أنت تستحقين أن يسعى كل رجال المدينة إليك، ولكني تصورت أنني الوحيد الذي يحق له الاقتران بك..

ما الذي أحدثته سنوات الهزيمة في النفوس والعقول؟!.. كيف لم أنتبه إلي تأثير الكارثة في العقول والقرارات؟! إن كل شيء يجري في اتجاه عكسي وأنت تجهز نفسك للموت في عبور أري أن موعده قد حان..

أستاذنتهم للانفراد بحياة بعض الوقت للتحدث إليها، تطلعوا نحوها فأبدت موافقة بهزه رأسها فغادروا جميعا الصالون. تواجهنا.. نظرت في عينيها وقلت في نفسي : قلما تتراجع حياة عن قرار أو رأي آمنت به واعتقدت فيه، حظيت باحترام الجميع، وهي دائماً مخزن أسرار لا تبوح بسر شاء صاحبه أو صاحبته ألا يطلع عليه أحد. قلت أكسر الصمت.

- هل ما سمعته يعبرّ عن رأيك؟

- لا.. أنا باقية علي العهد.. لكن تذكر أن الضغوط شديدة.

- ما حكاية الخطاب الثلاثة؟!

ابتسمت برضا وقالت :

- تحدث إليّ كل منهم علي انفراد، ولكني رددتهم ردا حسنا، لا أحب أن أجرح شعور أحد، ومع ذلك تسابقوا في عرض طلبهم علي أبي وأخي.

سكتت لحظة ثم أضافت :

- مشاعر كل منهم تتسم بالرقي، والتحضر، والإخلاص.

فتساءلت :

- وماذا عن جلال السكري؟!

- فسارعت إلي القول :

- لا تخش شيئا.. لن يأخذني أحد عنوة.

- أنا قلق للغاية.

- ثق في قدرتي علي حسن التصرف.
- أبوك مصمم..
- سوف يخضع لرغبتي في النهاية.

فقلت وأنا مفعم بالشوق:

- هل أطلب وعداً الآن.

فأجابت بابتسامة واسعة:

- أوافق عليك، ويمكنك أن تحضر في الإجازة القادمة ومعك الشبكة.
- أنا سعيد بما أسمع.
- لكن الزفاف بعد العبور والتحرير.

رغبت في أن يمتد بنا المجلس والكلام. لكن أيمن ما لبث أن تنحنح وهو في الطريق إلي الصالون. ثم انضم إلينا صامتا، بدا لنا أنه يشعر بحرج أمام والده.. فاستأذنت وسلمت، ومضيت بصحبة أيمن إلي باب الخروج..

(١٠)

أسفت لأن الإجازة الاستثنائية مرت بسرعة البرق ولكني شعرت بالرضا وأنا أمضي أغلب الوقت بالمنزل. كم تحدثت إلي أمي، واستمعت إليها، وتمتعت بدفء صوتها الحنون، وكم جالست والدي ولاعبته "عشرة طاولة"، واستمعت إلي كلامه عن "الزعيم" الذي أحبه مثلما أحب سعد زغلول والنحاس. يرى أن عبد الناصر زعيم ملهم، يعتقد أبي اعتقادا راسخا أن التحرير سوف يتم علي يديه. وما حدث في ٦٧ مجرد كبوة جواد سرعان ما سينهض ويستأنف الجري والعدو. فارس همام هز الدنيا بكلامه ومواقفه، وعلينا أن نصبر عليه حتى يستعيد ما فقدناه وخسرناه من أرض وكرامة. إنه مازال الزعيم الذي جابه أعتي القوي الأجنبية بعناد الثيران، وأرجو أن يمتد بي العمر لأري اللحظة التي يرفع فيها الزعيم علم العروبة فوق أسوار القدس كما قال مرة في "صوت العرب" المذيع أحمد سعيد قبل وقوع الكارثة الكبرى بأيام..

كم رثيت لأبي لأنه مازال مقتنعاً بأقوال الزعيم رغم الهزيمة المنكرة، ولكنني لم أجرؤ في أي وقت علي معارضته. كيف نعارض من صدق الشعارات، وآمن بالأقوال "التخديرية" طوال سبعة عشر عاماً، واعتقد بأن فكر الزعيم هو الذي سيحرر أرض الوطن؟!، ولذلك لم أشغل نفسي بمناقشته فيما يؤمن به ويعتقد فيه ويصدقه. آثرت الاكتفاء بالاستماع إليه في كل مرة يتحدث فيها عن الزعيم، وقد لازمني صوته الحماسي وأنا أبادل شقيقي الأصغر خالد الوداع علي رصيف المحطة، لأستقل القطار المتجه إلي القاهرة وبصحبتي حقيبة تخص شقيقتي رئيفة التي تقطن في حدائق القبة مع زوجها وولديهما نادية وكريم، وحقيبة أخري تضم بدلتي العسكرية وبعض أغراضي الشخصية..

(١١)

غادرت محطة مصر قبل الغروب. لفحني هواء فبراير البارد وأنا اتجه – بردائي المدني – إلي محطة أوتوبيس "حدائق القبة " رقم "٤٠"، رأيت الواقفين علي الرصيف حول اللافتة لا يحدجونني بنظراتهم.. قبل أيام عانيت من نظرات

الاستنكار وأنا أرتدي بدلتي العسكرية. قلت في نفسي أتأمل: هاهم لا يلتفتون إليك.. بعضهم أطالوا شعر رؤوسهم وارتدوا ملابس نظيفة وأنيقة تفوح منها روائح عطرية.. لم يكن بالمكان جنود ولا ضباط.. ولاحظت ابتسامات يتبادلها رجال ورجال، ورجال نساء ففكرت في وحدتي العسكرية المشرفة علي القناة، والساتر الترابي العملاق...

أسرعت إلي ركوب الأتوبيس حين توقف بالمحطة.. صعدت بسهولة. لم يكن ثمة زحام ولا تزاحم؛ فعند الغروب يقل عدد الركاب. في ثوان شغلوا المقاعد، جلسوا ولم يستغرق وقوف الأتوبيس في كل محطة سوي أقل من دقيقة، فقطع شارع رمسيس في عشر دقائق، ثم انحرف إلي اليسار قاصداً شارع مصر السودان. توقف للحظات في محطة "دير الملاك" وواصل السير حتى نهاية الخط: "محطة كوبري القبة" المواجهة للقصر الجمهوري..

نزلت وفي يدي الحقيبتان، اتخذت طريقي من ميدان القبة إلي شارع سكة الوايلي، ثم انحرفت إلي اليمين لأدخل شارع ولي العهد حيث تقطن شقيقتي وزوجها وولداها في

الشقة رقم "٣" بالطابق الأول بالمنزل رقم "٣٥".. قبل أن أطرق الباب سمعت أصوات شجار وتوعد ووعيد. شقيقتي رئيفة وزوجها حلمي السنطي دائما الشجار أمام ولديهما نادية وكريم. طرقت الباب فتوقف الشجار والصياح..

انفتح الباب علي وجه شقيقتي التي بدت باكية.. حاولت أن تخفي دموعها. تجاهلت الأمر كأني لم أسمع شيئا.. سلمت عليها وسلمت علي زوجها الذي ارتدي بنطلون بيجاما وفانلة أظهرت عضلات الصدر والذراعين ورقبته الضخمة المكتزة. انحنيت وقبلت نادية وكريم اللذين اندفعا تجاهي وكأنهما يحتميان بي. جلست لدقائق وهما صامتان، لم يتحدث أي منهما، قلت بهدوء :

– الجميع يسلمون ومشتاقون..

استلمت شقيقتي الحقيبة التي احتوت علي طيور مذبوحة مازالت محتفظة بثلجها، وفطيرتين وبرطمان عسل ابيض وعلبة من الجبن القديم، وقلت لأكسر الصمت وأنا أشير إلي محتويات الحقيبة:

- أمنا تسلم..فكرية أشرفت علي إعداد الحقيبة وبالهناء.

نهضتُ وقلت :

- عندي مشوار لابد أن أنجزه الليلة.

فقالت رئيفة :

- سوف تبيت هنا.

وقال حلمي:

- نحن في انتظارك.

وعقبت قائلاً :

- سأكون هنا حوالي العاشرة.

رغم أني كنت أمنّي نفسي بأن أمضي بقية اليوم مع رئيفة وحلمي وولديهما.. فإنني نفرت من البقاء، وآثرت الخروج ليحلا المشكلة في غيابي، ودائماً يتوصلان إلي حل؛ فكلاهما لا يستغني عن الآخر، ولأشاهد معالم القاهرة في الليل.. قصدت الميدان وأسرعت إلي أوتوبيس "٤٠" المتاهب للسير..

أوصلني الأوتوبيس بعد نصف ساعة تقريبا إلي ميدان التحرير، نزلت لأقطع الميدان إلي شارع سليمان "طلعت حرب". فوق الرصيفين وقف شبان وكهول ويجاورهم نساء صغيرات، وطالعني مقهي " أسترا " يجلس بداخله شباب وشيوخ. لم يلتفت إلي أحد وأنا أتأمل وجوهم.. انهمكوا في أحاديث بأصوات منخفضة، وأصوات مرتفعة قليلاً، وثمة ضحكات تصدر عن الواقفين والجالسين في المقهى..

لبثت لدقائق أمام "أسترا" ثم استأنفت السير، تخطف بصري أنوار الميدان والمحلات والسيارات المندفعة من شارع محمد محمود، والسيارات المتجهة إلي شارعي التحرير وسليمان، وأخري تمضي إلي ميدان المتحف قاصدة شارع رمسيس..

دققت في الوجوه فلمحت ابتسامات مريحة تتوسط وجوها منبسطة، فقلت في نفسي : واضح أنهم لا يعرفون ما يجري في جبهات القتال، أو أنهم يعرفون ولكنهم لا يريدون أن يشغلهم أحد عما هم فيه، وما أتوا من أجله من تسوق أو ارتياد لدور السينما والمسرح، أو متابعة الفتيات والسيدات..

إنهم لا يفكرون الآن في الجبهة التي تشتعل بين الحين والآخر.. إنها همّ يعكر الصفو، وهم غادروا منازلهم لكي ينعشوا نفوسهم ويمتعوا أبصارهم.. وتساءلت: أيمكن أن تختفي وراء البسمات والإشارات والغمزات.. أرواح قادرة علي مجابهة الخطر القادم لا محالة؟!، وهل تحول الأضواء الملونة المبهرة دون الوعي بالخطورة المستحكمة؟!..

ذكرتني "أضوء الإعلانات" الملونة المثبتة في واجهات العمارات - بإضاءات مقذوفات الصواريخ العابرة أثناء الاشتباكات الليلة.. رأيت المقذوفات المضاءة تعبر فوق الرؤوس لتسقط فوق أهداف عسكرية بالجناين والحقول.. أو فوق منازل ومساجد ومدارس ليس بها أهداف عسكرية، كما شاهدت مقذوفاتنا وهي تعبر إلي سيناء لتدك أهدافا - لم أرها - خلف الساتر العملاق، ولكننا نسمع أصوات انفجارات، ونشاهد سحابات دخان دليل تدميرها..

ها أنا ذا الآن أري الأضواء المبهرة تحوطني وتعلوني وأنا سائر في شارع طلعت حرب التجاري.. توقفت أمام مقهي "إكسلسيور". دخلت وجلست بجوار النافذة المستطيلة

المفتوحة تطل علي حركة العابرين فوق الرصيف الذي تطل عليه النافذة.. تفحصت الوجوه.. ثمة ارتياح يكسوها.. كيف تكتسي الوجوه بالراحة بينما يحتل الغزاة سيناء؟!، كيف لم يفكر أحد من هؤلاء وهؤلاء في الاشتباكات الليلية والنهارية؟!، ألا تصل إلي مسامعهم أخبار الهجمات الجوية التي لا تكاد تتوقف؟!..

هل فكروا في "دشم" قواعد صواريخ "سام" التي بينيها العسكريون والمدنيون في الليل فتغير عليها في الصباح الطائرات وتدمرها بعد الانتهاء من بنائها وإعدادها للعمل؟!، هل عرف أحد كم من المدنين والعسكريين الذين عملوا في إعداد هذه الدشم – قد تبعثرت أشلاؤهم بقنابل الطائرات المغيرة؟!، كيف لا يفكرون في أن العدو حريص علي إجهاض بناء حائط الصواريخ الذي قررته القيادة السياسية والعسكرية لمواجهة الطائرات المغيرة علي المواقع والمدن؟!.. كيف لم يتأثر هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء بأخبار الجبهة الغربية تتلقي صابرة الضربات الصاروخية في أي وقت يريده العدو؟!..

اجتذبني من شرودي فجأة صياح مكتوم صدر عن منضدة بالقرب مني تجمع بين شاب وفتاة.. بدا أن الفتاة خطيبة الشاب؛ إذ برقت في إصبع كل منهما دبلة ذهبية لامعة. تيقظت حواسي بمناقشة حادة تجري بينهما. وصل إلي سمعي كلام الشاب الذي يرتدي بدلة عسكرية كمونية، إنه مجند مثلي، وتدل هيئته علي أنا عائد إلي موقعه في الجبهة.. قال لها:

- عليك أن تقاومي.

فأجابت بوهن :

- لا أستطيع.. الجميع مصمم علي عقد القران.

- وأنا في هذه الحالة؟!.

- تصرف. تصرف. لابد من التصرف.

- كيف وأنا لا أضمن عمري؟!.

- أنهم لا يهتمون.. تصرف وإلا سأزف إلي غيرك.

فعمد الشاب إلي ضرب المنضدة بيده ضربة سمعتها وجميع الرواد.. ثم خلع الدبلة الذهبية اللامعة، فحاكته الفتاة بدورها.. رمي كل منهما دبلته فوق المنضدة، ونحياها بعصبية وغضب ونهضا..

غادر الشاب المكان واتجه إلي باب الخروج.. لحقت به الفتاة، ثم وقفا متواجهين للحظات أمام المقهي تبادلا خلالها نظرة سريعة.. ثم أدار الشاب ظهره ومشي.. غاب عن بصري بينما وقفت الفتاة حائرة..دفعني الفضول فأسرعت إلي الباب. رأيت الشاب يتباعد بثبات دون أن ينظر خلفه حتى انحرف إلي شارع ٢٦ يوليو. لاحظت الفتاة وهي تتابعه بعينيها، ثم أدارت وجهها ومضت تمشي في الاتجاه المعاكس حيث عبرت شارع طلعت حرب، ومشت فوق الرصيف بغير سرعة متجاوزة سينما "ديانا"..

لاحظت وأنا في مكاني ثلاثة شبان بدا لي أنهم كانوا يراقبون الفتاة والشاب. توجست حين عبروا الشارع صوب الفتاة. عدت إلي داخل المقهى وحاسبت الجرسون في ثوان،

وطلبت منه أن يحتفظ بالدبلتين؛ فصاحباهما سوف يعودان لأخذهما..

أسرعت وقطعت الشارع في الوقت الذي كان الشبان الثلاثة يسعون خلف الفتاة التي حدستُ أنها سوف تدخل شارع معروف، ولأنني أعرف أنه قليل المصابيح، وضعيف الإضاءة، وشبه خال يوم الأحد وخاصة في الليل - فقد تضاعف توجسي ونشط ذهني. فاتخذت قراري بحماية الفتاة والدفاع عنها..

انحرفت الفتاة كما توقعت إلي شارع معروف. لم يكن به محل مفتوح فالمحال تغلق أبوابها يوم الأحد فيظلم الشارع أو يكاد. كم لاحظت ذلك وأنا أمرّ بالشارع لأصل الي شارع رمسيس. قبل أن تبلغ الفتاة منتصفه اندفع أحدهم نحوها وأمسك بها، ودفعها إلي مدخل مظلم لعمارة قديمة، وتبعه الآخران في همة عالية..

سمعت صراخ الفتاة فهرعت إلي المدخل المظلم. حين رأوني توقفوا فأفلتت نفسها من أيديهم وأسرعت تحتمي بي..

ظننت للحظة أن الأمر قد انتهي، لكن الثلاثة أسرعوا بالخروج وواجهوني لاستعادة الفتاة.. ولمحت في يد أطولهم مطواة "قرن غزال" برق نصلها بضوء خافت لمصباح غير قريب يعلو عمود إنارة متوسط الطول. هاجم الشاب الطويل شاهراً المطواة فتفاديتها، وتعاملت معه بأسلوب دفاعي تعلمته في وحده الصاعقة. في ثوان لكمته لكمة شديدة حملتها غضبي ومعاناتي، فترنح ساقطاً علي الأرض مع المطواة، حاول الشاب الثاني أن يهاجم، فعاجلته بعدة لكلمات وبذهني استفزازات العدو في البرّ الشرقي، وهجومه علي مواقع البرّ الغربي. سقط الشاب مغشياً عليه، بينما لاذ الثالث بالفرار..

أشرت إلي الفتاة التي أصلحت من شانها بأن تغادر المكان بسلام فاستجابت.. انحنيت والتقطت المطواة، وحركت الشابين بقدمي فنهضا بتثاقل وسارا، ثم انحرفا ليغيبا عن بصري في شارع شامبليون. رميت المطواة في صندوق قمامة بالقرب مني، وتابعت الفتاة من مكاني وهي تخرج من معروف إلي شارع رمسيس بصخبه وإضاءاته..

وصلت إلي محطة "الإسعاف" في لحظة وصول أوتوبيس ٤٠ صعدت، جلست في مقعد خلا بنزول راكب، ما لبثتُ أن نهضت منه وتركته لسيدة حامل.. تراجعت خطوتين بينما أسمع عبارات الشكر والثناء. أرسلت بصري عبر زجاج نافذة قريبة أتابع المشاهد وأنا مفعم بأمواج الغيظ والنكد..

(١٢)

في الثانية عشرة ليلاً طرقت الباب طرقتين وانتظرت. انفتح على وجه شقيقتي رئيفة. رحبت بي بابتسامة صافية.. تبادلنا بضع كلمات وأنا أتناول معها العشاء. قالت إن حلمي نائم منذ ساعة وأيضًا نادية وكريم. انشرحت لنوم حلمي حتى يمكنني أن أنصت إلى شكواها منه. سمعتها وطيبت خاطرها وطلبت منها الصبر والتحمل. فما يحدث بينكما مجرّد "زوبعة في فنجان"، لا تلبث أن تتلاشى.. وحييتها واتجهت إلى غرفة نادية وكريم لأنام في سرير مقابل لسريريهما.. نمت وأنا أفكر في منع محاولة اغتصاب الفتاة، فسطعت في ذهني حياة الشاهد..

في نومي رأيتني أقف تحت شرفة منزل حياة. وجدتني أدعوها للنزول ولكنها لم تستجب. قابلت إشارتي بغير مبالاة.. وفجأة أشارت إلى شاب ضخم الجسم ودعتْه إلى الصعود.. فطار في الهواء وجاورها. استدارا ليغيبا عن بصري.. أسفت وقررت الرحيل، لكن انفتح الباب على شقيقها أيمن الذي أسرع يدعوني للدخول، لحضور حفل زفاف حياة. ورأيتني عاجزًا عن الحركة والتصرف والكلام. وتساءلت: هل تخلت حياة عني رغم العهد الذي ربط بين قلبينا منذ سنوات؟!..

استيقظت بصوت المنبه في الخامسة والنصف، لكني عاودت النوم حتى السادسة. نهضت مذعورًا؛ فلم يبق سوى ربع ساعة على وصول القطار إلى كوبري القبة. في دقائق ارتديت بدلتي العسكرية، وغادرت المنزل إلى المحطة بسرعة الصاروخ. صعدت وهو يتحرك ببطء.. جلست في أول مقعد ثنائي وأنا ألتقط أنفاسي وأجفف من عرقي الذي كاد أن يغطي عيني رغم البرودة الخفيفة التي شملتني أثناء العدو..

جاورني جندي، وواجهني في المقعد المقابل جنديان. تلفت حولي فرأيت العربة مكتظة بالجنود العائدين إلى وحداتهم العسكرية المنتشرة على جانبي الخط الحديدي الممتد من القاهرة إلى بورسعيد. تأملت: خلت الوجوه من الابتسامات، اكتست بوجوم ثقيل.. يفكرون فيما بدا لي في آباء، وأمهات، وزوجات، وإخوة، وأبناء، وحبيبات.. تفصح نظراتهم الشاردة عن أحاسيس مختلفة يتصدرها الإحساس بالمرارة من استمرار "الحال" التي نحن فيها: هاهو مارس ٦٩ قد انقضى منه أسبوع، ويذكّر بمرور عام وستة أشهر على الكارثة التي يصرّ إعلامنا على تسميتها "نكسة"!. متى يعود هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء إلى ذويهم؟، هل باتت اللحظة المنشودة قريبة؟، أم أنها بعيدة المنال؟..

أحسست فجأة بيد الجندي المجاور لي تضرب فخذي بعصبية. التفت إليه فأبصرت عينيه محمرّتين. سمعته يقول بصوت متوتر:

- لا بد من العبور لا بد. لن أهدأ إلا إذا تم العبور.

فرددت بكلمات تؤكد قوله:

- نعم لن نهدأ إلا إذا عبرنا.. اطمئن؛ هذه حربنا ونحن الذين نخوضها.

- طالت المدة .. عقلي يقظ، وقلبي قلق، وعيني لا تنام.

أغمض الجندي عينيه المحمرتين وسكت. آثر الصمت. أغمضتُ أيضًا عيني برتابة سير القطار، ولكنني لم أنم؛ فكرتُ وأنا مغمض العينين في مدى قدرة القيادة السياسة على التخطيط للعبور المنتظر. وعاد السؤال القديم يلح على ذهني: كيف نضمن التحرير في ظل رئيس مهزوم؟! كيف تتحقق النجاة على يديه وهو الذي - دون غيره - اختار القادة الجدد بعد انتحار أو اغتيال المشير؟!..

لا بد أن الجندي المجاور يفكر في هذه اللحظات في مثل ما أفكر فيه وأردده في نفسي. من حقه أن يسأل ليطمئن، ومن حقي أنا وغيري السؤال والاطمئنان. إن الوطن مكسور للغاية ولن يتحمل أي انكسار آخر..

فتحتُ عينيّ على صوت القطار في محطة "الإسماعيلية". هبطت بعد أن ودعتُ جاري الجندي الذي سيمضي القطار به وبزملائه إلى مواقع تالية.. مشيت حوالي نصف كيلو مع آخرين. أشار واحد منا إلى سيارة عسكرية فاستجاب سائقها ودعانا للصعود. صعدنا وجلسنا. قال الذي أشار إلى السيارة:

– أعرف السائق. "وحدته" قريبة من الجناين.

قلت في نفسي: هاأنا ذا أعود إلى "مقرّي الدائم" حقًا. أشعر بارتياح لأنني عائد إلى "مقرّي الدائم"؛ فبيتي بطنطا أو منزل شقيقتي رئيفة بالقاهرة – صار مؤقتًا. لم يعد له في ذهني صفة الاستمرار. أشتاق الآن إلى "الملجأ" المواجه لحفرة مدفعي.. أشتاق إلى مدفعي الذي يبعث في نفسي الثقة والاطمئنان. صار الملجأ القبو المغطي بشكائر الرمل – بيتي وموئلي ومستقري، ولم لا؟، فالحرب لم تحسم بعد. نزيف الدم والذخائر والأسلحة متواصل على الجانبين.. الحرب لم تحسم بعد، يحسمها العبور والتحرير. فمتى نعبر ونحرر؟، فليس

بغريب أن يسطع في ذهني "الملجأ القبو" حتى وأنا في إجازتي التي أقضيها في طنطا والقاهرة..

أنزلني سائق السيارة الكبيرة بالقرب من "الجناين"، ثم واصل السير. قطعت حوالي ثلاثة كيلو باتجاه مواقع الهضبة.. نظرت في ساعتي فجأة فاكتشفت أنني وصلت قبل موعد انتهاء التصريح بساعتين.. حدثت نفسي بأن أميل إلى قرية "حنيدق" لأداء صلاة الظهر ومجالسة الشيخ صادق الغمراوي كبير القرية الذي كثيرًا ما جالسته في أوقات الراحة. صليت الظهر وراءه بالمسجد. ودعاني إلى داره، فوافقت لأنني بحاجة إلى الاستماع إليه والتحدث معه..

جلسنا فوق "مصطبة" خارج داره، وأصرّ على مشاركته طعام الغداء. قبلت.. علاقتي بالشيخ صادق الغمراوي بدأت بعد أيام قليلة من وصولنا إلى الهضبة التي يمكن للعين المجردة أن تشاهد معالمها. وللهضبة مكان في قلوب أهل القرية؛ ففي منتصفها تقع مقابرها التي تضم الراحلين منهم، وشهداء الغارات الجوية، وقنابل المدفعية..

كم حكي لي بلسانه وعينيه – ونحن نحتسي الشاي بعد الغداء – عن آثار الهزيمة المروعة البادية في ملامح الجنود المنسحبين من سيناء، وكيف استقبلتهم القرية بالحزن والبكاء. كم حكي لي عن أن الفرحة ما لبثت أن دبّت في قريتنا ونحن نرى بعد شهر من الهزيمة أول مدفع بعيد المدى. تجرّه عربة وبجواره جنود سرعان ما أعدّوا له موقعا في شمال الهضبة في مواجهة الشرق الأسير، وكم حكي لي أن أهالي القرية عقب أول اشتباك مدفعي ناجح غنّوا ووزعوا "الشربات"، ويا لسعادتنا ونحن نستمع إلى مجموعة المدافع الإضافية التي احتلت مواقعها خلف القرية، لترد على قنابل المدافع الكامنة وراء الساتر الترابي العملاق، وكم قال لي: أنت يا ولدي الأمل، أنتم المتعلمون سوف تزيلون الغمة عن صدورنا، وتعيدون لنا الأمان. وأتذكر الآن أنني أكدت له أننا عازمون على أننا لن نعود إلى بلادنا وبيوتنا إلا بعد العبور والتحرير..

اتجه الشيخ صادق نحو الهضبة، وقال بصوت متهدج وهو يرشف الشاي من كوب ساج:

- أثق أن الفرج قريب.

فعقبت وأنا أتابع معه معالم الهضبة:

- قريب للغاية يا حاج صادق.

قال وهو ينظر إلى ابنه الوحيد سالم وأحفاده الثلاثة الصغار الذين يجرون هنا وهناك خلف دجاجات ملونة:

- أيمكن أن يتحقق النصر قبل وفاتي؟.
- الأعمار بيد الله، والحرب واقعة لا محالة.
- أشعر بقرب الأجل، وأحب أن أراكم وأنتم تعبرون إلى البرّ الشرقي.
- القرار ليس في يدنا، ولكننا نشعر بأن الحرب وشيكة منذ تعيين الفريق عبد المنعم رياض رئيسًا للأركان.
- الحمد لله. ليت الحرب تقوم قبل وفاتي.

تطلعت إلى ابنه الوحيد المزارع الذي اكتفى بالاستماع إلينا، وتقديم الشاي بين الحين والآخر، وعندما رمقت أطفاله

الأربعة وهم يطاردون بضع دجاجات ملونة، تساءلت: هل سنكون قادرين على "التنفيذ" لحماية هؤلاء الأحفاد من طلقة أو شظية أو صوت انفجار مروّع؟.. الشيخ الهرم لم يعد له من أمل في الحياة إلا تنفيذ العبور والتحرير. من حقه أن يتمنى وأن يستأخر الموت الزاحف نحوه، حتى يشاهد عملية العبور التي ستثأر لابنه الأصغر عبادي الذي أصابته منذ شهور قنبلة مباشرة حين كان يروي الحقل. في بداية الصباح مات عبادي وهو في سن الخامسة عشرة..

أكدت للشيخ صادق بعيني وأنا أودعه بأن الفرج قريب، وسوف تسمع وترى مظاهره.. بدا لي أن الشيخ فهم نظرات عينيّ؛ فقد ابتسم وضغط على كفي بحرارة وظل واقفًا حتى تواريت عن بصره..

مشيت بخطوات سريعة في الطريق الترابي المؤدي إلى الهضبة. شعرت بالارتياح وأنا أصعد متجهًا إلى المواقع؛ فهذا بيتي ومأواي، والشوق إليه غلاّب. تراجعت مدينتي المباركة بالسيد البدوي، وغابت من عيني معالم منزلي بشارع

النحاس، ومعالم بيت شقيقتي بشارع وليّ العهد، بل ومعالم القاهرة بأنوارها الساهرة الساحرة. أحب الملجأ القبو، والمدافع المشرعة، والجنود يتحركون هنا وهناك، وأحب الظلام، والليالي المقمرة. والزواحف التي تمر حولنا دون أن تؤذي أحدًا.. صحت بصوت سمعه ناجي فهيم:

- الله.... هذا بيتي، وهنا مأواي، كم أحب بيتي وأهواه.

ضحك ناجي وأقبل عليّ يصافحني بحرارة:

- أصدقك.. عبرت عن شعوري الذي يلازمني كلما عدت من إجازتي.

جلست إلى جواره على حافة حفرة المدفع وبيده نظارة المراقبة وأداة الإنذار الخشبية. قدم لي سيجارة وأشعلها بولاعة بهت لونها الذي كان ذهبيًا.. نفخت في الهواء الدخان مرات وهو يسألني عن إجازتي: كيف قضيتها؟ وأحوال الأسرة؟. ثم ما لبث أن انضم إلينا شعبان الفيومي ومسعد الرفاعي.. وضحكنا لأننا تذكرنا جميعًا "الفصل البارد" الذي

تعرض له "مسعد" أثناء رجوعهما من سيناء: فقد غافله شعبان وشرب "بوله" الذي يحتفظ به في "الزمزمية" ليروي به ظمأه. ولا يمكن لمسعد أن ينسى هذا "الفصل البارد"..

انصرفت إلى "الملجأ القبو" الخاص بي وبناجي فهيم الذي سيسلم المراقبة بعد قليل إلى "جودة البنهاوي". تأملت الجدار الأيمن. معلق به صورة لناجي مع والده، تجاورها صورة السيد المسيح، وثالثة للسيدة مريم العذراء. وقلت في نفسي: نجح الرسام في إظهار ملامح الطيبة والصفاء في وجهي السيد المسيح والسيدة مريم العذراء. ناجي متدين أراه أحيانًا يقرأ في الكتاب المقدس. يذكرني ناجي بصديقي في طنطا "إدوارد قلدس" وحيد والديه، لا أنسى كلامه لي قبيل سفري إلى الإسكندرية لأسلم نفسي إلى منطقة التجنيد: كم تمنيت أن يكون لي شقيق لأجند مع مواليدي. القانون لا يجند وحيد والديه. لماذا لا يجند وحيد والديه ما دام يرغب في التجنيد؟! أيمكن تعديل المادة القانونية التي تحظر تجنيد وحيد والديه؟ بكي إدوارد بحرارة. وهو يودعني ليلة السفر إلى

الإسكندرية. وقلت في نفسي: إن العبور المنتظر سوف يعيد البسمة إلى الوجوه العابسة التي أراها في يقظتي وفي منامي..

غلبني إرهاق السفر وقلة النوم فتمددت. نظرت في سقف الملجأ الحديدي للحظات ثم أغمضت عيني. حسبتني سأحظى بنوم يبدد إرهاق السفر ولكنني لم أنم؛ فكرت في "حياة الشاهد" والضغط الذي تتعرض له، وفكرت في رمزي، وفكري، وعدلي. وقلت في نفسي: كيف سيستقبلون خبر خطبتي لحياة في الإجازة القادمة؟.. وفكرت في غرور "جلال السكري" وكبريائه وهو يعرف أن "حياة" آثرتني عليه، وهل ستسلم حياة أو ثابت من الأذى؟، وفكرت في صورة الخطيبين في مقهى "إكسلسيور" وهما يخلعان الدبلتين ويرميان بهما فوق المنضدة، وتساءلت: أيمكن أن يعدلا عن قرارهما ويقاوما كما يقاوم ثابت المراسي وحياة الشاهد؟.. ورأيتني وأنا أجهض محاولة اغتصاب الفتاة في ظلام شارع معروف بالتصدّي العنيف للشبان الثلاثة. ورددت في نفسي: كيف يمكن للمرء أن يتسامح مع شبان أرادوا اغتيال البراءة؟. نجت الفتاة بنجدتك السريعة، فهل ستكون قادرًا وأنت مكبّل الآن على

حماية حياة الشاهد من مجهول معلوم ينتظرها نتيجة قرارها الذي لا شك ستعلنه؟. أشعر بحاجة ماسّة الآن إلى التحدث مع رمزي، وعدلي، وفكري، الذي اتصلت به في الصباح ليرتب للقاء يجمعنا في موقعه..

(١٣)

في الصباح استأذنت القائد للذهاب إلى ك ٥٠١، وك ٥٠٢، لأنني أحمل إلى أصدقائي الثلاثة: رمزي، وعدلي، وفكري رسائل شفوية ومكتوبة. أجازني النقيب جمال لمدة ساعتين.. غادرت الموقع وسلكت طرقًا غير ممهدة بالطبع إلى ك٥٠١ قاصدًا موقع فكري فوق ربوة تتمركز في قمتها فصيلة الـــ دم/ط. استقبلني فكري بترحاب بالغ، ولم يلبث أن حضر رمزي وعدلي اللذين حصلا مثلي على إذن محدد بساعتين. وأخبرت الثلاثة بخبر عزمي على خطبة "حياة" الشاهد في إجازتي القادمة، فقد جلست مع أسرتها، واستمعت إلى آرائهم بحضورها، وتفاهمت معها على الخطبة وموعدها. ووعدتْ هي بثقة بأن تجعل والدها يتحللّ من ارتباطه مع

جلال السكري بناء على رغبتها. سارع كل منهم بتهنئتي بالقرار. وقال فكري مازحًا:

- أحببنا جميعًا حياة الشاهد. وكم تمنيت أن يتزوجها واحد ليس منا ويرحل بعيدًا عنا حتى لا نتصادم، ولكنني سعيد بأنها اختارتك، وسوف أقدم التهاني لعائلتها أثناء إجازتي التي تبدأ غدًا.

رجعت ظهرًا إلى موقعي قبل انتهاء زمن الإذن. وقصدت حفرة المدفع حيث حل موعد مراقبتي، فاستلمت من "مسعد" النظارة" و"الإنذار الخشبي". وتوجهت ببصري نحو فضاء البرّ وأنا أفكر في الغارة المحتملة، وحياة الشاهد وجلال السكري..

(١٤)

بعد ثلاثة أيام زارني فكري الجبالي بوجه غير مبتسم.. هاهو يعود من إجازته ويحضر إلى الموقع قبل أن يتجه إلى وحدته. أحسست بأن وراء عبوسه خبرًا خطيرًا دفعه إلى مقابلتي قبل أي أحد. توجست وقلقت. انتحى بي

على حافة الهضبة، وأخبرني أن "حياة" تمت خطبتها في حفل أول أمس. وقد دعاني أيمن لحضور الحفل. أما عقد القران فبعد ستة أشهر بناء على رغبتها، وقد بعثت برسالة إليك ورجتني وهي باكية أن أقف إلى جوارك في أزمة ليس لها دخل في تطورها..

تلقفتُ الرسالة. فضضت "الظرف" عن ورقة مكتوبة بيد مرتعشة: "ثابت. وعدتك ولكن الضغوط كانت أقوى، وعندما تحضر سوف تسمع بنفسك لتقدّر. وافقت على الخطبة بشرط إرجاء الزفاف لمدة ستة أشهر. لا تظن أنني نسيتك، فسوف أذكرك حتى لو تم زفافي إلى جلال السكري. اضطررت للقبول لأنني أمام الضغوط كنت وحدي، وليس إلى جواري أحد، حتى أيمن ووالدتي رضخا للأمر الواقع وتخليا عني رغم أني أعلم أنهما غير مقتنعين. أيمن يتحاشى النظر إليّ ويهرب دائمًا من نظراتي. سوف تحضر وتسمع بنفسك سبب قبولي. مع تحيات حياة الشاهد".

أطرقت بعد قراءة الرسالة. وأنا أسمع بداخلي صوت غضبي الكامن في دقات قلبي المتسارعة. ولم يطل إطراقي. فقد ضغط فكري يدي وقال بصوت متهدج:

- رغم أني تمنيت أن يتزوجها واحد ليس منا لكيلا نتصادم - فإنني أسفتُ للغاية وشعرت بمدى الضرر الذي يمكن أن يلحق بك. لكنني متأكد أنها ما زالت تحبك.

- لكنها وافقت. قبلت وانتهى الأمر. تحولت.

- لا تتسرع في الحكم. وأرى أن تحصل على إجازة استثنائية لتسمع بنفسك.

يبدو أن "فكري" قدّر أن الاختلاء بنفسي أنسب. فسلم وغادر لأبقى وحدي أعيد النظر في الموقف: كيف منّتني حياة ثم وافقت على الخطبة لجلال؟!. صدقتُ عينيها وكلامها وهي تطمئنني غير أنني أشعر الآن بوهن وحيرة، ولا أجد بنفسي الرغبة في الإجازة الاستثنائية.. ولكن ثمة صوت بداخلي ما لبث أن حرّضني بأن الحالة هادئة والطوارئ قد "خفت" إلى

الدرجة الأولى "أ"، فأجبته بأن العدو غادر ويهاجم في أي وقت يشاء. فلأنتظر، خاصة أن "حياة" قد أكدت أن لا أحد يمكنه أن ينالها عنوة. فلأنتظر.. ولكن سرعان ما راودتني الرغبة في السفر، ولو ليوم واحد لأسمع وأعود.. الرسالة موجزة ووراء الكلام همّ وضغط وقهر.. أطرقت فرأيتها بوجهها الباسم. استحضرها ذهني فقلت: لا يمكنني أن أحضر هذه الأيام، وعليك أن تواجهي الضغوط كما وعدت..

رفعت رأسي فواجهني الفضاء الشرقي. تأملت القناة والساتر بغيظ. الأرض مأسورة والقناة مأسورة. فكيف أفكر في رغبتي وأنا أرى مَشاهد الفضاء والقناة والتلال البعيدة واقعة في الأسر؟. ليس من حقي التفكير في أمر نفسي. التفكير يجب أن ينصب الآن وفي المستقبل على هذا الواقع المأسور..

كما توقعت سمعت صباح يوم "٩" مارس "٦٩" صوت انفجار شديد يأتي من حيّز "ك٥٠١" المرابطة بموقع "نمرة ٦" الذي يبعد حوالي ٣٥٠ مترًا عن مواقع العدو في البر

الشرقي، وكانت تجري معركة بالمدفعية منذ أمس في هذا القطاع، فقلت في نفسي: ليس للعدو زمن محدد في العدوان، إنه يضرب أي شيء ترى مخابراته أنه يشكل تهديدًا لمواقعه، فهل يحق لي أن يستغرقني التفكير في همومي فأنسى هذا الهمّ الأكبر الذي يفوق في ضخامته وثقله الساتر الترابي العملاق؟!، هل باستطاعتي أن أغادر لأتابع أمرًا ضد رغبتي وعاطفتي؟، فلأدع حياة الشاهد تواجه الواقع حولها لأتفرغ لهذا الواقع المرير..

في عصر اليوم التالي "١٠ مارس ٦٩" انتشر خبر زيارة الفريق عبد المنعم رياض للمواقع أثناء الانفجار المدوّي سمعناه صباح أمس.. وقلت في نفسي إن مخاطرة الفريق ليست غريبة عليه، فكثيرًا ما يتابع بنفسه موقف قوات الجبهة؛ وقد أكد رمزي الحديدي في تليفون المراقبة نبأ الزيارة، وقال إنه سيحضر بصحبة فكري وعدلي بعد نصف ساعة، فقلت في نفسي: هاهم حريصون على مواساتي وليس الشماتة، فقبل أن ألتقي بهم أشعر أنهم اتفقوا على التخفيف من وقْع الخبر على نفسي. رجحت أن فكري أخبرهما بأمر خطبة حياة..

جمعتنا حافة الهضبة في مواجهة الشرق المأسور. تطلعت إلى الجدار الأيمن لمسجد الشيخ حنيدق الذي هدمته المدافع المعادية، ثم قلت أوجه حديثي إلى فكري الجبالي:

- لن أغادر موقعي وليكن ما يكون.

فقال رمزي الحديدي:

- أنا واثق من تجلّدك. وإن كنت أرى أنها تستحق أن تسافر لتسمع منها.

وقال عدلي مغيرًا مسار الموضوع بخبر الانفجار الذي هز المنطقة ظهر أمس. استهدفوا "الفريق عبد المنعم رياض"..

فصحت مذعورًا:

- أصابه شيء؟.

فبادر فكري قائلاً:

- استشهد.

وعقب رمزي:

- رصدت مخابرات العدو وعملاؤه زيارته للموقع أمس فأطلقت المدافع قنابل و"قنبلة تفريغ" أودت به.

فصحت ضاربا الرمل بقدمي:

- ها قد بدأ العدو مخططه في تصفية "القيادات" المميزة التي يراها تشكل خطرًا عليه.

وقال فكري:

- حرص العدو في هذه العملية على بث اليأس فينا، لتصاب رغبتنا في العبور بضربة قاتلة.

وهنا صحت بغضب:

- لا بد من الثأر للرجل.

- كيف؟!

- بالعمل خلف خطوط العدو.. أقصد غارات على مواقعه خاطفة ومؤثرة.

فعقب فكري بابتسامة:

- كأنك عرفت بالخبر الذي عرفته منذ ساعة.

- ما هو؟.
- كلفت القيادة مجموعة مكونة من ثمانية أفراد نحن الأربعة ضمنها بقيادة النقيب جمال العارف للعبور ليل غد.. وسوف يستدعيك.

ابتسمت في راحة ورضا، وقلت في نفسي: إن ساعة الثأر المنتظر قد حانت.

وأضاف فكري:

- الأربعة الآخرون من وحدة الصاعقة الملحقة بالفرقة.

تضاعف شعوري بالراحة والاطمئنان. وقلت: هاهي حربنا قد بدأت. رجل لرجل، رجل لموقع، رجل لدبابة.. وشعرت بالتفاؤل حين قال رمزي:

- سعد الدين الشاذلي صار قائدًا لأركان الجيش.
- الشاذلي الذي حافظ على معداته في سيناء حتى غادر بها سالمة جدير بتولي المنصب؛ فهو لن ينسى ما حل بقواتنا المسلحة في ٦٧..

(١٥)

استدعاني النقيب جمال العارف مساء يوم١١ مارس ٦٩ إلى مقر قيادة السرية، لأنضم إلى أصدقائي الثلاثة: فكري الجبالي ورمزي الحديدي وعدلي قلدس. كما انضم إلينا جنود الصاعقة الأربعة.. وقفنا في صف واحد واستعرضنا للحظات النقيب جمال.. رأيتني أتصفح وجهه المربع الأسمر الذي عكست ملامحه أمارات العزم والتصميم على إنجاز المهمة الخطرة.. هاهي قيادة صغيرة شهدت حرب ٦٧ دون أن تحارب.. ضربت الطائرات وحدته. دمرت السلاح قبل أن يشرع.. عاد إلى الوطن بعد عشرين يومًا قضاها في الصحراء مشيًا على الأقدام.. هاهو يتحدث ممتلئًا بيقين بأن "الجيش الجديد" قادر على إلحاق الهزيمة بالعدو المتغطرس.. كم استمعت إليه في أوقات سابقة وهو يحدثني عن كارثة تدمير وحدته ووحدات أخرى لم تشرع الأسلحة؛ كانت المباغتة قاتلة أفقدت القيادات القدرة على اتخاذ القرار المناسب. فكان الانسحاب عشوائيًا في صحراء مكشوفة

لطائرات هيلوكبتر ظلت لأيام طويلة تطارد الجنود التائهين في الصحراء وتقتلهم.... أوقف النقيب جمال تفكيري بقوله:

- سوف نعمل خلف خطوط العدو. سنعبر غدًا نحن التسعة تحت جنح الظلام من منطقة مختارة بعناية.

أمرنا بدخول مقر السريّة امتثلنا وأنا أفكر في دلالة اختيار رقم "٩".. وعمد إلى عرض "الخطة فجر" على ورقة كبيرة. هاهو المكان الذي سنعبر منه. تم تأمينه، وسوف يساعدنا في هذه العملية أفراد مدربون. سوف تحملون معدات وأجهزة ومتفجرات موقوتة.. وتذكروا أن العملية سريعة خاطفة ضد مواقع مدفعية "هاون وهاوتزر" رصدها جنود "استطلاع الفرقة"..

وفي الموعد المحدد انساب بنا قاربان مطاطيان بهدوء، تحت نصف قمر، اهتدينا بضوئه ونحن نقصد الشاطئ.. في حدود عشرين دقيقة كنا نحمل معداتنا ونتسلل عبر التلال القصيرة يرشدنا إلى الأهداف المرصودة اثنان من قوة الاستطلاع.. توزعنا في ثلاث مجموعات، كل مجموعة

ثلاثة. اقتربنا من المواقع الحصينة، لغّمنا الطريق الواصل إليها، وثبتنا بجوار كل موقع شحنة متفجرات موقوتة. استغرقت العملية حوالي خمس عشرة دقيقة. وحين عدنا لنقصد الشاطئ فوجئنا بسيارة مدرعة تعترض طريقنا فتعاملنا معها بسرعة.. أسرعت إليها وتسلقتها ووضعت في داخلها قنبلة وقفزت إلى بعيد. سرعان ما انفجرت، فرأيت عددًا من الجنود يهرعون ناحيتنا، فتبادلنا الرصاص لدقائق، ثم ضجت المنطقة بدوي شديد، اشتعلت النيران بعده في المواقع الأربعة نتيجة زرع الألغام والمتفجرات الموقوتة..

قبل أن نبلغ الشاطئ سقط جندي من جنود الصاعقة، أصيب في ظهره، فحملته على كتفي وأسرعت به، لكن بعد قليل أصابتني رصاصة في كتفي وأخرى في ساقي فلم أبال بإصابتي واتجهت به نحو القارب.. سقطت إلى حوار الجندي بعد أن أنزلته من فوق كتفي بعناية.. ورأيتني أغيب عن الوعي بينما تخايلت لي صورة الفريق الشهيد بابتسامة واسعة..

(١٦)

فتحت عيني فرأيتني في المستشفى الميداني بمدينة "أبو صوير". سررت حين وجدت فوزي جريس جندي الصاعقة الجريح الذي حملته على ظهري وأنا مصاب في ظهري وساقي اليمنى. وهاأنا ذا أعرف منه أن ثلاثة من القوة قد سقطوا شهداء في العملية، وأن النقيب جمال أصيب إصابة بالغة في فخذه؛ فتم نقله إلى مستشفى القوات المسلحة بالمعادي". ولولا العناية الإلهية لبترت ساقه. ظل يطلق رصاصه من موقعه لحمايتنا أثناء عودتنا إلى القاربين. ولحق بنا وهو مصاب، ولكنه تحامل وبقي في مركز القيادة حتى بلغنا الشاطئ. قلت لفوزي جريس:

- أتمنى أن يعود سريعًا النقيب جمال. لا بد من تكرار العملية ضد مواقع أخرى.

جاء ضباط صغار وكبار، وجاء أطباء جراحة وعظام، وجاء قائد اللواء برفقة قائد الكتيبة.. ربت يدي برفق ومودة وقال:

- قرأت ملفك. وقائد الفرقة يثني عليك، ويتمنى لك سرعة الشفاء لتعود إلى وحدتك.

شكرته وقلت بوهن:

- أديت واجبي.. ولن أكف عن المشاركة في أي عملية تنال من العدو.

اتجه إلى فوزي وربت يده وقال:

- خاطرتم والجيش يقدر مجهودكم، وتقرر منحكم أوسمة في جمع عسكري سيعقد قريبًا.

حدثت نفسي بعد أن غادر القائد الغرفة: كم أحب أن أسمع أن الوطن كله يقدر جهودنا ومخاطرنا. هل حان الوقت الذي أشعر فيه بأن الوطن متضامن معي، وأن شارع "معروف" وغيره من الشوارع المماثلة قد بات مأمونًا وغير مخيف؟، هل خلت شوارع قصر النيل، وطلعت حرب، و٢٦ يوليو، من المتحرشين بالمارة من النساء؟!، وهل العملية الخاطفة التي تمت بنجاح قد سمع بها كل أحد؟، هل عرفت حياة الشاهد أنني كنت أحد أفراد العملية الناجحة؟.. ليت أبي

– إذا عرف– يخبر أمي بأن ثابت المراسي نجا وسيعود قريبًا؟ أيمكن أن تكون طنطا مدينتي المباركة بالسيد البدوي – قد وقفت على الخبر ليدعو أبناؤها لنا بالعبور الناجح؟!، وهل عاد الجندي الغاضب ومعه خطيبته إلى "إكسلسيور"، واستردا من الجرسون الدبلتين؟، ليتهما قد عادا معًا وأحاطت إصبعيهما الدبلتان..

شعرت بوهن وإرهاق فأخذني نعاس خفيف ما لبث أن اشتد فأدخلني في نوم عميق. نمت فحلمت بجلال السكري يهبط من سيارته المرسيدس الحمراء، ويمشي بثقة واختيال إلى باب منزل "حياة الشاهد"، ورأيت الباب يفتح على "حياة" التي بدت منكسة الرأس. وهتف بي هاتف: كيف يمكن أن تواصل "حياة" الرفض والإعراض بينما الجميع موافقون مقبلون..

غادرت مستشفى "أبو صوير" بعد ثلاثة أشهر من العلاج. حمدت الله على أن "التقرير الطبي" خلا من الإشارة إلى أي عجز أو قصور في بنائي الجسماني، وبإمكاني العودة

إلى وحدتي العسكرية. استعدت الأمل في مواصلة مهمتي التي ظننتُ أنني لن أشارك فيها بسبب إصابتي..

ها أنا ذا الآن أصعد إلى الهضبة سليمًا معافى لأستأنف مهمتي فيها بعد انقضاء الشهور الثلاثة.. وها هم أفراد الموقع جميعًا يستقبلونني بحرارة صدقها قلبي وعقلي. وها أنا ذا أعود إلى ترقب الهجوم الجوي أو المدفعي الذي سيأتي من الشرق المأسور. ولا أجد في ترقبي أي تبرّم أو احتجاج أو ضيق. ومرات أفكر في "حياة الشاهد".. استحضرها ليخفف وجهها البريء الأبيض المستدير من معاناة الانتظار..

(١٧)

انتبهت من غفوة العصر في الملجأ على يد تهزني برفق فرأيت ناجي. سلمني ناجي رسالة وردت اليوم. عرفت من الخط أنها من "حياة". فضضتها بعد ذهابه. فقرأت: "عزيزي: اكتب لك لتفسير تحولي. وقبولي للخطبة؛ فمنذ أيام حاصرت أبي بأسئلة، كلها تركز على سبب تفضيل جلال السكري، حاول أن يهرب ولكنني شددت الحصار. قال:

- جلال ثريّ ابن مليونير.

فبادرت:

- وأنت لا تقل ثراءً. لست أقل من أي ثري في البلد.

فقال:

- أنت لا تعرفين.

- ما الذي لا أعرفه؟، صارحني أرجوك.

- اضطرت إلى إخفاء الحقيقة.. لقد أفلست.

- كيف؟!

- ضاعت الأموال في مشروع وهمي، ورّطني فيه من ظننته صديقي.

ثم سكت برهة وقال:

- سيّلت كل ما أملك من أرض، واقترضت من البنك مليون جنيه.. واشترينا أراضي المشروع في "كينج مريوط" لإقامة المزرعة الدنماركية، وحررت على نفسي شيكات بعضها بلا رصيد. وهرب شريكي

إلى الخارج برصيد الشركة. ولم ينقذني من السجن إلا المليونير شوقي السكري.

سكت برهة وواصل:

- ضاع كل شيء. حتى المنزل الذي نقطن فيه لم يعد ملكنا. صار للسكري. أرأيت لماذا لا أعترض على جلال السكري؟..

روعني - يا ثابت - أننا لم نعد نملك حتى المنزل الذي شهد الطفولة والصبا وشهد الذكريات. ولذلك تراني حزينة للغاية.. كل شيء يتوقف عليك. يجب تحريري من إحباطي ويأسي. وأثق في قدرتك على أن تنجيني.

حياة الشاهد.

نحيت الرسالة جانبًا وأدرت بصري في السقف الحديدي، ويبدو أن التأثر ظهر على ملامح وجهي. فقد قال ناجي ناشد بصوت قلق:

- الصبر الصبر. تماسك.

أغمضت عيني فأخذني النوم: رأيتني في حلم أعود فيه إلى مدينتي المباركة بالبدوي، وأقصد المقام الأخضر بمفردي، وأقف بعد الصلاة أمام الضريح المسوّر بالنحاس المشغول، وأنادي بصوت ضعيف: أعاهد الله وأعاهدك يا شيخ العرب على أنني سأحررها، وأعود إليك بالنصر المبين..

وفي حلمي رأيت أصدقائي الثلاثة: فكري ورمزي وعدلي – يتوافدون الواحد بعد الآخر على منزل "حياة" لطلبها.. ووجدتني أتحدث إليهم بكلام رجوت أن يخفف من حنقهم عليّ وغضبهم مني، وسمعتهم يهنئونني ويباركون لي ويعانقونني ويؤكدون لي أنهم ليسوا غاضبين من "حياة" ولا منك، وسمعتهم يقولون إن حياة لن تقترن بسواك.. فبعث قولهم في نفسي بعض الاطمئنان..

(١٨)

يبدو أن هذا القدر من الاطمئنان قد التقى برغبتي العارمة في عدم حرصي على "الإجازات" المقررة لجنود

الجبهة وهي ثلاثة أيام كل خمسة وأربعين يومًا.. فاكتفيت بإرسال خطابات طوال الشهور اللاحقة إلى والدي، وحياة الشاهد، لا سيما أن القيادة قد رأت تكرار عمليات العبور الجزئي للعمل خلف خطوط العدو.. وإن كنت قد حصلت على إجازات سريعة طوال شهور فبراير وإبريل ويوليو ١٩٧٠ - زرت أثناءها والدي وآل الشاهد، لدعم موقف حياة التي قدرت وتقدر دائمًا موقفي وحرصي على مواجهة أي هجوم يأتي من الشرق..

(١٩)

استدعاني قائد الكتيبة إلى مقره وأخبرني بأنني مطلوب في قيادة الفرقة. لاستلام "وسام"، وسوف تأتي سيارة لتوصلك مع من شاركوا في العملية إلى مقر قيادة الفرقة في الساعة التاسعة من صباح الغد.. تذكرت قائد اللواء الذي زارني في المستشفى الميدان وهو يثني على "أبطال العملية" الناجحة.. شعرت بسرور بالغ تضاعف حين وضع قائد الفرقة الوسام على صدري في الساعة التاسعة والنصف، وقرر منحي

إجازة لمدة أسبوع تبدأ بعد خفض درجة الطوارئ المقررة هذه الأيام.. وكان عليّ أنا وغيري أن نواصل البقاء في المواقع لمدة شهرين..

استلمت تصريح الإجازة بعد أن ارتديت البدلة الكمونية. وطالعت بداية التصريح من الساعة ١٤٠٠ يوم ٧٠/٩/٢٦ ونهايته الساعة ٢٢٠٠ يوم ٧٠/٩/٢٩.. ابتسمت؛ فقد تجدد أملي في الاستحواذ على حياة، وتغيير هذا الأمر الواقع. وإن رأيت أن المشكلة معقدة وأكبر من قدراتي. فما زلت مجرد جندي في جيش يستعد لحرب محفوفة بالمخاطر..

استقللت سيارة من الوادي قال ناجي إن سائقها من أقاربه، وهو يقصد الإسماعيلية في "مأمورية" سريعة.. وقال إنه طلب منه أن يوصلني إلى المحطة مراعاة للوقت. وهو على حق فما زال أمامي سفر طويل من الإسماعيلية إلى القاهرة، ثم إلى طنطا مدينتي المباركة بالسيد البدوي..

في القطار المتجه إلى القاهرة.. تأملت مرة أخرى "التصريح المكافأة"، وتحسست الوسام على صدري، ولكن

سعادتي بالوسام والإجازة – كانت محدودة؛ فثمة همّ كبير ما لبث أن تملكني... استبدّ بي. أنا مهموم لفقد جنود أعرفهم، وجنود صاعقة زاملتهم في عملياتنا الخاطفة خلف الخطوط.. وأنا مهموم والقطار الآخر يسرع بي إلى طنطا.. مصدر همّي الخاص هو حياة الشاهد، فالواقع أنني لست واثقًا من نجاح مهمتي في إقناع والد حياة بأن يتحلل من وعده في ضوء المعلومات التي وقفت عليها في الرسالة..

الحق أنني متعاطف مع والد حياة؛ فالحل السحري المنشود لخروجنا من المأزق بعيد المنال؛ فثمة أمر واقع هو أن المليونير شوقي السكري ملك عنق لطفي الشاهد إلى الأبد. وهاهو المنزل الكبير بحديقته الشاسعة لم يعد ملاذًا لهم صاروا مجرد ضيوف. وبإشارة من المليونير يتم إخلاؤه. أي حسرة!. وأي حزن يسري في جوانب المنزل الكبير وزواياه الآن!..

توقف القطار في محطة طنطا. شعرت بالارتياح وأنا أخرج من بابها الحديدي. اقتربت من عربة حنطور وصعدت

إلى مقصورتها بعد أن أخبرت الحوذي بأن يوصلني إلى تقاطع النحاس وغياث. مضى الجواد الهزيل يجرّ العربة بغير سرعة، ولم أعترض؛ كنت بحاجة إلى مراجعة أحداث الأيام الماضية قبل أن ألتقي بأي أحد، وكنت بحاجة إلى تأمل وجوه من سكان مدينتي التي أحبها وأعشقها. رأيت أهلي منكسي الرءوس يمشون بتثاقل ويعلو وجوههم الأسى والحزن. ولم يكن ضجيج ولا صخب. مدينتي هادئة ساكنة مسالمة..

أوقف الحوذي جواد العربة عند التقاطع. نقدته أجره وهبطت من الحنطور، شكرته واتجهت إلى باب عمارتنا. صعدت إلى الطابق الثاني الذي يطل على شارع النحاس. كان باب الشقة مواربًا كالعادة، دائمًا بابنا مفتوح. تنتظر أمي دائمًا عودة "الغائب" قاصدة توفير جهده في الطرق على الباب. إنه مفتوح لعادل الغائب الذي لم يعد من حرب ٦٧، و"ثابت" المجند الذي ذهب ليزيل "آثار عدوان ٦٧"..

هاهي أمي تجلس وسط كنبة في الصالة وأذناها على الحركة القادمة من الباب. إنه هو الغائب الذي تنتظره.

ابتسمت بعينين لا تريان القادم ولكنها تشعر به. إنه عادل أو ثابت.. اقتربت منها وقبلت يديها ورأسها. ضمتني إلى صدرها بحنان. تحسست الوسام المثبت على صدري، وتساءلت عنه بصوت غير واهن، فأخبرتها أن القيادة منحته لي لمشاركتي في "عملية ناجحة" ضد العدوّ، وأضفت:

- حفظني الله بفضل دعائك لي ورضاك عليّ.

وشاركنا أبي حين عاد الفرحة بالوسام الذي زين صدري. وقال إنه يريد أن يعرف به ويراه كل فرد في مدينتنا. الواقع أني شعرت بقيمة الوسام أكثر وأنا أرى ملامح السعادة تغمر وجه أبي ووجه أمي. هل يفكران الآن في أنني قد ثأرت لشقيقي عادل الذي سلم أبي باستشهاده بينما تنتظر أمي عودته؟.. وماذا تقول حياة وأهلها حين يعرفون أن ثابت ورمزي وعدلي قد حصلوا على أوسمة الشجاعة في "عملية ناجحة" كانت محفوفة بالمخاطر؟.. هل يمكن أن تبدّل هذه العملية موقف لطفي الشاهد فيتحلل من ارتباطه مع شوقي السكري؟، فيكون بذلك قد قدم لحياة طوق نجاة كم تحتاج إليه في محنتها التي تعاني منها، وقد تسلمها إلى قبضة الهلاك..

في الرابعة من مساء اليوم التالي فكرت في الاتصال بحياة خاصة أن شقيقتي الكبرى عايدة أخبرتني أن حياة أعلنت رفضها الصريح لجلال السكري بعد أن عرفتْ نبأ إصابتي من أيمن الذي أخبره رمزي الحديدي أثناء إجازته منذ أيام، قالت: إن لطفي الشاهد جابه الأمر بشجاعة حين وقف إلى جوار ابنته ضاربًا بجميع المخاطر المحتملة عرض الحائط، وقالت: إن الرجل عاتب نفسه على إصراره بالموافقة على الخطوبة وهو يعلم بالرابطة التي تربط بين حياة وثابت. وسمعت أنه قال – كيف أوافق على "جلال السكري" وأرفض "شابًا" يخاطر بحياته من أجلنا جميعًا؟!.. وعلمت أن أيمن أكد قول أبيه وشجعه على قراره. وثمة ترتيبات لإخلاء المنزل هذه الأيام وتسليمه لشوقي السكري. فهتفت منزعجًا:

– وديونه؟، إنه مدين للسكري، وسوف يكون مصيره السجن لو لم يسددها.

– أعلن للقريب والبعيد بأنه لن يبيع ابنته بسبب خطأ ليست مسئولة عنه.

- وحياة؟!

- أعتقد أنها تنتظر قرارك. اذهب وقابلها، وتحدث معها.

أسعدتني هذه المعلومات التي سوف تعيد إليّ حياة الشاهد بعد أن رأيت غريمي يقترب جدًا من الاستحواذ عليها. هاهي الطريق مفتوحة وممهدة لنوالك يا حياة. لم أكن متأكدًا من نجاحك في مواصلة الرفض والخروج من التجربة سالمة معافية. رأيت السدّ بيننا قد علا وارتفع مثل السدّ الترابي العملاق فأصابني الإحباط والتشاؤم.. هاهو "التفاؤل" يأتي إليّ بصاروخ أعاد إليّ وجه حياة الشاهد بابتسامتها الوضيئة..

أسرعت إلى منزل آل الشاهد لتستقبلني حياة بعينين فرحتين داعيتين بالتقدم نحوها خطوة وخطوات، أمسكت بيديها وتطلعت إليهم قائلاً:

- حياة أمانة. وسوف أعود بإجازة استثنائية لتقديم الشبكة.

فقال الوالد:

- اطمئن.. ونحن في الانتظار.

انشرح قلبي واطمأن بابتسامة حياة.. بقيت بعض الوقت ثم سلمتُ وانصرفت..

تواصلت الرسائل بيننا عدة شهور تخللتها إجازاتي التي صارت كل شهرين أو ثلاثة لارتفاع الطوارئ بين الحين والآخر.. وقد قدم لي النقيب جمال تصريحًا بإجازة لمدة ثلاثة أيام تبدأ من ٢٦/ ٩/٧٠. سافرت إلى القاهرة وطنطا والتقيت بوالدي، ثم قمت بزيارة آل الشاهد وزاد اطمئناني بثبات موقف حياة..

(٢٠)

غادرت طنطا بقطار السادسة مساء ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وأنا مملوء بالسعادة وصلت إلى محطة مصر في الساعة السابعة والنصف.. حين أسلمتني درجات المخرج إلى الساحة الخارجية - صكت أذني أصوات صراخ وعويل ونواح صادرة عن تجمعات دائرية حول أجهزة الراديو بمحلات تحت عمارة "إيفرست"، قصدتها منزعجًا لأستطلع ما

يجري. سمعت صوت رجل يجلس القرفصاء وهو يجهش بالبكاء ويقول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. عبد الناصر مات. عبد الناصر مات.

فزعت إلى الراديو فاستمعت إلى بيان نائب رئيس الجمهورية "أنور السادات" ينعى للأمة وفاة الرئيس جمال عبد الناصر: "مات أغلى الرجال.." فتأكد لي الخبر الذي عرفته من الرجل الذي أجهش بالبكاء منذ قليل....

شاهدت عددًا من الرجال يقتعدون قاعدة تمثال رمسيس، يصرخون ويهتفون باسم الزعيم الراحل.. مات الرجل منذ ساعتين، عقب وداعه في المطار لآخر حاكم عربي هو أمير الكويت، بعد ختام مؤتمر القمة العربي الذي توصل الزعماء فيه إلى حل مشكلة الصدام المسلح بين المنظمات الفلسطينية والسلطات الأردنية.. فآثر الزعيم أن يودع الأمير مثلما ودع جميع الملوك والزعماء الآخرين، رغم مرضه وإجهاده الشديد، وتحذيرات الأطباء والمقربين.

أي عناء!، وأي جهد!!، وأي مغامرة بمستقبل القرار السياسي!، هل فكر الزعيم أن "موته التضحية" في الوقت الحاضر قد يدخل الوطن في نفق آخر مظلم لن يكون في صالح الاستعداد للتحرير؟!، أية حسرة! وأي أسف على تعثّر مسيرتك يا وطني المقهور!..

ركبت بصعوبة شديدة أوتوبيس "٤٠" المغادر إلىٰ كوبري القبة. اعتلى سطحه وغطاه تمامًا شبان وكهول أخذوا يولولون وينتحبون، وفي داخل الأتوبيس جرى كلام وولولة ونحيب، وكذلك في الأتوبيسات العابرة وأتوبيسات الجانب الآخر.. تأثرت بخبر الموت الشديد الوقع على نفسي، والمفاجأة دون شك أذهلتني؛ لأنني لم أفكر أبدًا أن مثل هذا الرجل يمكن أن يموت أو يفارق الحكم. تربينا على خطبه وأقواله وشعاراته، وأعجبنا بطوله وعرضه ووسامته وقوة شخصيته وبريق عينيه الواسعتين. كيف يموت عبد الناصر الذي أشعل ثورات وغيّر أنظمة، وأسقط حكامًا بخطبه وكلماته دون أن يغادر وطنه؟!، هل يموت مثل هذا الرجل

الذي حرص أشد الحرص على وقْف الصدام الفلسطيني الأردني؟، سمعت رجلاً بجواري يقول لآخر يقف أمامي:

– عجبًا. سقط بعد أن نجح في حقن الدماء الفلسطينية والأردنية.

فقال الذي يقف أمامي:

– سبتمبر "أيلول" الأسود أودى بحياة الرجل.

علق صوت لا أرى صاحبه:

– أنا لا أصدق أنه مات. عبد الناصر لا يموت.

وقال آخر:

– مات.. تركنا قبل تحرير الأرض.

– رحل.. ولن يشهد عملية "إزالة آثار العدوان".

وانطلق من خلفي صوت يائس:

– معنى موته أن كل شيء سينهار.. ولن يتم تحرير الأرض.

فبادر صوت من الخلف بدا مخالفًا ومثيرًا:

- لن تنهار البلد.. سنواصل المسيرة. لا بد من الخروج من النفق المظلم بعد الذي حدث.

وددت أن أضيف رأيًا ولكني آثرت الصمت، خاصة أنني ما زلت تحت تأثير "صدمة الدهشة".. فقد ظننت - لطول عهدي بالزعيم - أنه باقٍ، باقٍ ولن يموت.. ولكنني تابعت في نفسي إحساسًا نشطًا بالتفاؤل بشّرني بأن تغييرًا واسعًا سيجري في الأيام القادمة، وجعلني أوافق على كلام الرجل الذي سمعته منذ قليل: "لا بد من الخروج من النفق المظلم بعد الذي حدث"..

وصلت إلى منزل شقيقتي رئيفة بوليّ العهد حوالي التاسعة مساء، اتجهت إلى التلفزيون الذي يتصدر الصالة. جلست بين شقيقتي وزوجها الذي بدا عليه التأثر الشديد، بينما اكتفت هي بتوجيه نظرات شاردة مرة إلى سقف الصالة، ومرة إلى التليفزيون دون أن تعلق بكلمة واحدة على مشاهد أرشيفية للزعيم وهو يستقبل الرؤساء والملوك ويودعهم، ثم

وهو يتصدر "مؤتمر المصالحة"، كما بث التليفزيون مشاهد لقاءاته بزعماء العالم وبخاصة "كتلة عدم الانحياز". وبين الحين والآخر يظهر على الشاشة: أنور السادات نائب الرئيس وهو ينعى للأمة وفاة عبد الناصر، ليتأكد المواطنون من نبأ الوفاة المفاجئة. ظللت أتابع المشاهد الأرشيفية حتى غلبني النعاس فغادرت إلى حجرة النوم..

(٢١)

استيقظت في السادسة صباحًا، رغم أنني ما زلت في إجازة، اليوم "الثلاثاء ٢٩ سبتمبر". نهضت من فراشي وشربت كوب شاي أعددته، مع فطيرة صغيرة سحبتها من طبق مغطى فوق منضدة الصالة.. جلست وفتحت الراديو الصغير. حركت مؤشر المحطات لأستمع إلى ردّ فعل موت الزعيم. استمعت إلى "لندن"، و"صوت العرب"، و"دار الإذاعة الإسرائيلية" و"إذاعة القاهرة".. استمعت إلى آراء زعماء عرب وأوروبيين، يعلقون على خبر الوفاة، وعلقت جولدا مائير رئيسية وزراء إسرائيل على الخبر بقولها: "هذه نكتة

سخيفة"، وتوالت على أذني صور صوتية لجماهير غير مصدقة في عدد من العواصم العالمية..

غادرت مسكن شقيقتي في التاسعة إلى شارع الوايلي، ثم انعطفت إلى شارع مصر والسودان الذي امتلأ بأمواج بشرية تقصد ميدان القبة حيث القصر الجمهوري؛ فقد أذيع بأن جثمان الرئيس سيودع في القصر لتطير به "هيلوكبتر" إلى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة.. حاولت أن أتقدم نحو القصر، لكن الطريق إليه كان غاصًا بالبشر. رجال ونساء وأطفال افترشوا الأرض، وأصدر أغلبهم صيحات حزن وأسف..

تابعت المشاهد بعض الوقت ثم استدرت عائدًا إلى "مصر والسودان"، مشيت بصعوبة شديدة إلى شارع "الجراج" الجانبي، واصلت المشي فيه لمسافة مائة متر تقريبًا.. فرأيت تاكسيًا يقبل ثم توقف لينزل منه رجل وسيدتان، فأسرعت نحوه مع آخر. ركبنا السيارة لتمضي بنا من شوارع فرعية عديدة، حتى بلغ دير الملاك، ثم أحمد سعيد.. أخبرته أنني أقصد ميدان العتبة..

سلكت الميدان إلى شارع محمد علي حتى ميدان "باب الخلق". اتجهت منه إلى باب الوزير لأزور صديقي الشاعر "حازم كامل". تذكرته جيدًا بموت الزعيم؛ فقد كان يجهر بمخالفته في أحاديثه وأشعاره. تعرفت عليه ونحن في منتصف السنة الأولى بكلية الآداب حين جمعنا "النشاط الأدبي"، وتوطدت صلتي به بعد أن أطلعني على مخطوطات قصائده، في حين أطلعته على مخطوطات قصصي القصيرة. وازدادت صلتنا عمقًا بسفرنا إلى "أسيوط" حيث مثلنا جامعة القاهرة: هو في الشعر، وأنا في القصة في أسبوع شباب الجامعات، وعدنا بجائزتي الشعر والقصة، ثم توطدت أكثر حين جمعنا مركز "التدريب الراقي" بهايكستب في أواخر يناير ٦٨، وأساس المعادي الأول بعد قرار توزيعنا يوم ١٠ فبراير ٦٨ على أساسات المعادي. ولكنه اختير لدراسة "اللغة الروسية" للعمل في هيئة البحوث العسكرية.. وأتذكر الآن أنه كان يجاهر بنقد عصر عبد الناصر وتنبأ بوقوع كارثة مروعة..

وصلت إلى منزله في الواحدة ظهرًا، وسرعان ما وافق على اقتراحي بالمغادرة لمشاهدة رد الفعل في شوارع القاهرة.. فقطعنا سيرًا على الأقدام باب الخلق وحسن الأكبر فعابدين وباب اللوق حتى شارع التحرير، لنرى كتلاً بشرية عريضة وطويلة يعلوها شباب يولولون وينتحبون، ومرة التفت إليه قائلاً:

- الزعيم مات. هل تصدق أنه مات.

فبادر بسرعة:

- في الوقت المناسب.. المرحلة الحالية والقادمة تفتقر إلى التغيير.

سكت برهة. وقال:

- أؤكد لك أن التحرير لن يتم إلا بتغيير القيادة. وهاهو التغيير قد بدأ بالرحيل القسري.

- تذكّر منجزاته.

- لم يحافظ عليها. انهارت بجهل الحاشية، ونفاق المعاونين.

توقفنا عن الكلام للحظات ريثما يعبرنا موقف حاشد لشباب وكهول، حمل بعضهم شابًا فوق رؤوسهم، عصّب رأسه بطرحة سوداء، ويهتف بحرقة ويرددون وراءه:

- بالروح، بالدم نفديك يا جمال.

مشينا خلف الموكب صامتين.. لنرى المشهد يتكرر في شوارع قصر النيل، وطلعت حرب، و٢٦ يوليو، وميدان الأوبرا.. جلسنا فوق رصيف يطل علينا تمثال إبراهيم باشا لإحساسنا بآلام في أقدامنا.. قلت بعد فترة وجيزة:

- ملايين القاهرة تملأ الشوارع.

- لا أحد بمنزله الآن تقريبًا.

عقبت:

- جماهير غفيرة. لم أشهد مثلها من قبل.

فقال بسرعة:

- تأمل: بعضهم يشارك، والآخر جاء للفرجة والمشاهدة.

فأردفت:

- وبعضهم صدّق، والبعض الآخر جاء ليتأكد.

سكتّ لحظة وقلت:

- شغل عبد الناصر العالم طوال فترة حكمه.

فقال حازم كامل بعصبية:

- اهتم بتحرير بلدان العالم الثالث على حساب شعبه..

افترقنا عند تقاطع شارعي حسن الأكبر ومحمد علي، ليتخذ هو طريقه إلى "باب الوزير"، ولأمشي أنا إلى ميدان العتبة، لأجد بعد انتظار طويل تاكسيًا قبل سائقه بإلحاح شديد أن يقلني إلى شارع ولي العهد بكوبري القبة... وبالطبع لم تمكنه الأمواج البشرية من التقدم في شارع مصر والسودان، فتوقف لأنزل في تقاطعه مع أحمد سعيد، لأواصل أنا السير مع الأمواج البشرية المتجهة إلى كوبري القبة، ثم انحرفت

يسارًا إلى وليّ العهد؛ حيث منزل شقيقتي مع بداية غروب شمس الثلاثاء التاسع والعشرين من سبتمبر..

بقيت في المنزل إلى صباح الأربعاء لأشهد إقلاع "الهليوكبر" بجثمان الزعيم لتطير به إلى مقر مجلس قيادة الثورة المطل على شاطئ النيل بالجزيرة. فقد تقرر خروجه منه في جنازة رسمية شارك فيها الملايين التي تنتظر – كما سمعت في الراديو – منذ الصباح لتودع الزعيم الذي أحبته، وتابعتْه، وآمنت به واعتادت على رؤيته منذ سنوات طويلة...

هاأنا ذا أشاهد الجنازة في التليفزيون: أمواج بشرية تتدافع خلف وأمام وحول عربة المدفع" يتقدم الجنازة ملوك ورؤساء وزعماء. جنازة لم أشهد مثلها، ولا أظن أنني سوف أشهد مثلها في مستقبل الأيام.. بكيت بكاء لم أبكه من قبل حين انسحبت إلى غرفة النوم تاركًا شقيقتي وزوجها يواصلان المشاهدة، وتذكرت حبي للرجل والثورة وإيماني بمسيرتها.. وتذكرت مناقشاتنا حول إنجازاته وإخفاقاته، ولكننا لم نفكر أبدًا في "إقصائه". انتقدنا بعض أفراد الحاشية وعددًا من القادة العسكريين، والأعوان والمساعدين..

كم تمنينا أن يلتفت إلى مخلصين يحبون الوطن مثل حبه له.. كم أخفى المعاونون والمساعدون عنه الحقائق. وكم ارتكبوا من ورائه الأخطاء الفادحة. إني أرثى لحال الوطن الآن وأواصل وحدي البكاء. وكيف لا أبكي وقد تركنا وحدنا في نفق "الاستعداد" لتحرير الأرض من أيدي الغزاة؟!. منذ وقوع الكارثة وهو يتحمل مسئولية الاستعداد للعبور والتحرير.. هاهو شعبه الذي واكبه يذكر إنجازاته، وينسى "الأخطاء" التي ارتكبها باسمه المعاونون والمساعدون. إنني الآن أرثيك.. أرثيك يا زعيم..

(٢٢)

هاأنا ذا أرتدي بدلتي الكمونية وأسعى إلى كوبري القبة؛ لأستقل القطار إلى "وحدتي"؛ بعد أن عادت الحياة الطبيعية إلى الطرق المؤدية إلى المحطة.. وهاأنا ذا أعود إلى مقر القيادة التي قدرت صعوبة العودة بل استحالتها بسبب الزحام الهائل الذي أصاب المواصلات بالشلل التام.. وكم كانت المفاجأة وأنا أرى الضابط جمال العارف الذي رقيّ إلى رتبة رائد قد شفي وعاد لتولي القيادة...

وفي ملجأ الهضبة انفردت بنفسي لأستمع من الراديو إلى مراسم نقل السلطة إلى النائب "أنور السادات"؛ ليتولى مسئولية رئاسة البلاد دون اعتراض من أحد، وهاهو يعلن في خطابه الأول: أنه سيمشي على طريق عبد الناصر، وتعهد بمواصلة الاستعداد للتحرير.. والحق أني راقبت إحساسًا بالتفاؤل جعل ينمو بداخلي فوجدتني أصدق ما يقول، ولكني لم أمنع إحساسًا آخر بداخلي بأن الرئيس الجديد لن يمشي على طريق الزعيم الراحل طول الوقت، خاصة أن محمد حسنين هيكل في مقاله بصراحة في صدر "الأهرام" ١٩/١٠/٧٠ – قد أشار إلى بوادر صراع على السلطة، بمناسبة تقديم استقالته من عمله كوزير للإرشاد والثقافة ..

عدت إلى مدفعي أتأمله، وأنا أذكر قول الرئيس الجديد.. ولكنني بمرور الأيام خضعت لخشية أن يطول أمد اتخاذ القرار فتظل سيناء والقناة واقعة في الأسر إلى الأبد، وتظل الطائرات تحلق وتستبيح فضاءنا الغربي بمدنه وقراه، وتساءلت بوهن: إلى متى يتواصل هذا الاستفزاز؟، ومتى تتوقف المدافع الصاروخية التي دأبت على تدمير المواقع

والقرى المتاخمة للقناة؟، هل سيظل "الاستنزاف" على الجانبين الشرقي والغربي إلى الأبد؟!..

حصلت من الرائد جمال العارف على إجـازة استثنائية لمدة "٤٨" ساعة لشراء "شبكة" مناسبة لحياة. تمنى لي بالتوفيق الرائد الشاب الذي تعاطف معي عقب علمه بالأحداث التي جعلتني أعجل بالخطبة، وحرص على أن يوفر لي سيارة تقلني إلى محطة الإسماعيلية. أحسست أنه سعيد وهو يساندني في أول إجراءات زواجي. وشجع على أن أكتفي بتقديم الشبكة، وإرجاء "القران" بعد التحرير الذي بدأت بشائره تلوح في الأفق..

لم أشعر هذه المرة بطول المسافة الممتدة من الإسماعيلية إلى القاهرة ومنها إلى طنطا. كنت أفكر طول الطريق في حياة الشاهد. وهو التفكير الذي جعلني بعد وصولي إلى منزلي اتصل بشقيقتي عايدة، التي حضرت بسرعة لتصحبني إلى "الصاغة". حيث اشتريت شبكة وهي "مصحف، ودبلتان، وأسورة". ورجعنا إلى المنزل وأطلعت

عليها أبي، وتحسستها أمي، وتمنى الاثنان لي السعادة والهناء..

في المساء قدمت الشبكة لحياة في احتفال عائلي بسيط ضم والدى حياة، وشقيقها أيمن، ووالدي وعايدة وزوجها. وكانت حياة في نظري – وما تزال – أجمل عروس.. وعجبت كيف نالني اليأس مرة فكدت أتخلى عنك يا حياة؟! وأسلم بالأمر والواقع. ولولا نبل عواطفنا، وشجاعة والدك "لطفي الشاهد" لكنت الآن في حوزة جلال السكري..

في صباح اليوم التالي جمعتني بحياة – قبل ساعتين من موعد قطار طنطا – القاهرة – منضدة في "المنتزه العام"، جعلت أتأمل وجهها المستدير الأبيض بمحبة ونشوة. وتشابكت أصابعنا فوق المنضدة مرات وأنا أقول في نفسي: هاهي أخيرًا قد آلت إليك. كما توقعت واجهت حياة الضغوط وآلت إليك. خاتمك في إصبعها الأيمن ذهبي يلمع بأشعة الشمس، وخاتمها بإصبعك الأيمن يعكس شعاعًا شمسيًا لافتا.. أشعر أن القدر كريم معي للغاية بأن أبقاني حيًا دون أن يحصل موت

أو عجز. واستحواذي على حياة - كرم آخر أراه مكافأة على صبري وتمسكي بك يا حياة. ولأنك ملء العقل والقلب فإنني أعاهدك على الثبات في المواقع الخطرة.. سوف أعود لك بعد التحرير لنواصل معًا الطريق الذي أردناه.. استغرقنا حوار الأيدي والعيون: وددنا أن يستمر اللقاء، لكن ساعة معصمي ذكرتنا بقطار الثانية المسافر إلى القاهرة فغادرنا المكان..

(٢٣)

هاهي الشهور تمر بطيئة في الجهة الغربية، وهاهي أحداث تشير إلى "صراع" على السلطة. فأصابني نكد شديد.. وتمنيت أن يزول الصراع الذي نوّه إلى بوادره محمد حسنين هيكل؛ فالغزاة على أبواب المدن الغربية يخططون لاستباحتها، بينما الوزراء "ورثة عبد الناصر" يتصارعون ويتآمرون على الرئيس الجديد لإقصائه عن الرئاسة ولما تمض سبعة شهور على توليه السلطة. خفت على "إنجازنا" الذي بنيناه منذ يناير ٦٨، هل سيسحقه الصراع الدائر بين الرئيس، و"مراكز القوى"؟! وماذا يفعل الرئيس؟، وهل يفكر

في الاستقالة؟، هل سيخضع للضغوط أمام "عبث هذه المراكز"، ليتفرغ إلى تنفيذ العهد الذي قطعه على نفسه غداة توليه السلطة: العبور لتحرير الأرض؟..

ظل السؤال يؤرقني حتى أقبل يوم "١٥ مايو ٧١"؛ فقد وقع انقلاب ماهر قاده الرئيس ضد "مراكز القوى" التي نصبت نفسها خلفاء لعبد الناصر. ضربهم الرجل "بثورة تصحيح" لتنفيذ العهد وتحقيق الوعد، فتأكد إحساسي بأن تغييرًا واسعًا بدأه الآن بفكر مخالف تؤطره "مناورات ماهرة" على المستويين السياسي والعسكري..

وسمعته مرة في الراديو يخطب ويعلن عن "سنة الحسم" أي وجوب الانسحاب الإسرائيلي من سيناء وإلا سيحرر الجيش الأرض بالقوة المسلحة.. ولأن سنة الحسم قد مضت دون أي عمل عسكري. بل إن المواقع الأمامية تعرضت لمزيد من الغارات واستباح الطيران الإسرائيلي سماء القاهرة العاصمة مرات- فإن طلاب الجامعة قد هتفوا ضد رئيسهم الجديد وبدءوا يقاومون سياسته بالخطب والشعر ومجلات الحائط، وتابعهم مواطنون في عدد من المحافظات..

قابل الرئيس "المطالب" بحكمة بالغة بدعوى أنه سوف يترك "للدبلوماسية" العالمية الفرصة لإقناع المجتمع الدولي، والجانب الإسرائيلي... لكنني مع ذلك أحسست أن الرجل ليس سهلا ولا ساذجًا، وإنما هو يدبر لأمر لا يعلمه إلا قلة قليلة؛ ظهر هذا في تحركاته ولقاءاته الثنائية بالزعماء العرب وغير العرب، كما ظهر في قرار "طرد الخبراء" الروس من كافة الأسلحة، والاكتفاء أثناء "المشروعات التدريبية" بالضباط المصريين..

فجأة هاجم العدو بالمدفعية والطيران عددًا من المواقع الأمامية والخلفية الواقعة في حيّز "ك٥٠١، وك٥٠٢" ردًا على عبور فصيلة صاعقة ونجاحها في تدمير مواقع بداخل سيناء تبعد حوالي خمسمائة متر عن الساتر الترابي.. وانسحابها بدون خسائر.. هاجم العدوّ بكثافة حاملاً معه رسالة تحذير ووعيد. ورغم أن المدافع المضادة قد تمكنت من إسقاط عدد من الطائرات على جانبي القناة فإن الهجوم المباغت قد أحدث خسائر جسيمة في مواقع الكتيبتين، واستشهد بسببه جنود وضباط تصدوا للهجوم، وعرفت أن أصدقائي الثلاثة

فكري الجبالي، ورمزي الحديدي، وعدلي قلدس قد سقطوا شهداء وهم في مواقعهم..

أكد لي الرائد جمال نبأ استشهاد زملائي الثلاثة حين صعد إلى الموقع بقصد مواساتي.. انفجرت في بكاء حاد استغرق وقتًا طويلاً في حضوره. واجتهد ناجي ناشد وجودة البنهاوي في التخفيف من وقع الخبر على نفسي، وذكراني بعشرات الجنود والضباط الذين يسقطون كل يوم. ولا تنس يا ثابت أنهم أسقطوا الفريق "عبد المنعم رياض" صباح ٩مارس ٦٩ بضربة غادرة منذ ثلاثة أعوام..

كم لاح الثلاثة بذهني كلما خلوت بنفسي، أو وقفت خلف مدفعي، أو جالست أحدًا من أطقم المدافع، وكم تساءلت: كيف استطعم الحياة بينما قضى هؤلاء وهؤلاء في هذه الهجمة الشرسة؟، وهل بمقدرتي أن أشعر بالسعادة وأصدقاؤنا الثلاثة قد لقوا حتفهم وصاروا في عداد الشهداء؟، كيف يمكن التمتع بأي شيء والعدو كامن وظاهر يتحرك متى شاء التحرك، ليضرب ويدمر متى أراد التدمير والإهلاك؟، أي أسف! وأي

خسارة! وأي غضب يجتاح صدري ويباعد بيني وبين النوم!..

عاهدت الثلاثة القابعين في ذهني على "الثأر". سوف أضع نفسي تحت تصرّف القيادة لتنفيذ الثأر بكافة أشكاله رغم ما يصاحبه من أخطار وما يقترن به من مخاطر. لكنني لم أستطع منع إحساس ملحّ بالقلق جعل ينشط بداخلي؛ إذ يبدو من سياسة الدولة أن الرغبة في "العبور المنشود" قد تراجعت قليلاً، لا سيما أن "السادات" وقد أمر بطرد الخبراء الروس فاتح باب "التحفظ الروسي في دعم القوات المسلحة". أي أننا صرنا في العراء بلا سند ولا دعم ولا حليف.. وروّج لهذا التحول الإعلام الإذاعي والتلفزيوني والصحفي؛ لإقرار مقولة السادات ضرورة "الوقفة مع الصديق"؛ ومعنى هذا أن الاعتماد على الذات" هو أساس العملية الكبرى المنشودة..

هاهو عام ١٩٧٢ يشهد إجراء محيرًا، منذ صدر قرار بتسريح دفعة من المؤهلات المتوسطة في ١٩٧٢/٧/١، ولم يمر شهر إلا والدفعة خارج القوات المسلحة.. كما صدر قرار

آخر في شهر نوفمبر ١٩٧٢ باتخاذ إجراءات تسريح دفعة المؤهلات العليا: يناير ١٩٦٨ في ١٩٧٣/٧/١. فكيف يتوقع العدو أو غير العدو أن يشن الجيش المصري حربًا قريبة وهو يفرط في جنود سبق تأهيلهم منذ سنوات على الأسلحة المتطورة؟!..

ظن المراقبون وسواهم من عامة الشعب، وربما تيقنوا أن الحرب بعيدة جدًا.. وأن الإرادة المصرية قد وهنت ومالت إلى السكينة.. ولكنني – وأظن أن هناك غيري كثيرين– لم أصدق الهدف القريب من التسريح، فثمة "هدف بعيد" دون شك في أذهان الرئيس والقادة العسكريين: المشير أحمد إسماعيل وزير الدفاع، والفريق محمد حسني مبارك قائد سلاح الطيران، والفريق سعد الشاذلي رئيس الأركان، والفريق عبد الغني الخميسي رئيس العمليات وغيرهم.... وقد تأكد توقعي يومًا بعد آخر "بكثرة التحركات وإعادة الانتشار"، و"تقدم القوات الآتية من الخلف نحو مشارف مدن السويس والإسماعيلية، وبور سعيد، ثم عودتها بعد ساعات قليلة إلى الخلف حيث مناطق تمركزها، وتكرار التقدم والرجوع"؛ لتبدو

التحركات كأنها مشاريع تدريبية عادية في فترات "الهدوء النسبي" الذي تشهده الجبهة الغربية.. وهو الهدوء الذي استكمل خلاله بناء "حائط صواريخ سام "٦""، الذي تمكنت بعض "بطارياته" من إسقاط طائرات حاولت مهاجمة مواقع بالضفة الغربية، كما أن هذا الهدوء قد أتاح فرصة انتظام الإجازات المقررة.. فكنت أحصل على تصريح إجازة "٧٢" ساعة كل شهر التقي خلالها بأسرتي، وبحياة خطيبتي؛ فنعمت بالاستقرار إلى حد ما رغم إحساس الحزن الذي كان يتملكنا ونحن نتذكر أصدقاءنا الذين استشهدوا جراء تلك الغارة المباغتة. وكم ساءلت نفسي وأنا مع حياة أو منفردًا عن حقي في الاستمتاع بعاطفتي بينما تحلق فوقنا صورهم قبل الشهادة وبعدها. تألمتُ كثيرًا ووجمت حياة كلما تحدثنا عن المستقبل.. وكم قلت لها:

- أيحق لنا أن نتحدث عن المستقبل ولم نثأر بعد لشهدائنا..

كم علت جلساتنا صور مواقع أصدقائنا التي أصابها التدمير الوحشي، فتحولت - كما قالوا لي - أجسامهم إلى

أشلاء تبعثرت حول الموقع، والتصق بعضها بالمدافع. ومع ذلك كانت عواطفنا المختزنة تدفعنا إلى الحديث عن المسكن الذي سيجمعنا، والأثاث الذي سوف نختاره.. لا سيما أنني أخبرتها بنبأ تسريح دفعتي في الشهر القادم.. ١٩٧٣/٧/١..

(٢٤)

هاهي مدينة طنطا تلوح من نافذة القطار القادم من القاهرة.. نزلت من العربة، وهبطت درجات السلم بتثاقل وشرود. حتى احتواني ميدان المحطة الصغير. لم يلتفت إليّ أحد.. ولم أجتذب أنظار المارّة وأنا أقطع شارع المديرية؛ فأنا أرتدي ملابسي المدنية بينما ضمت حقيبتي "الأفرول والحذاء"، سلمها لي الرقيب متولي مع شهادة الخدمة العسكرية المؤقتة وقال:

- أصبحت الآن مدنيًا وإن كنت تحت الطلب في أي وقت تريده "الوحدة"..

هل شعرت "بالحرية" بعد قضاء خمس سنوات وستة أشهر في القوات المسلحة؟! لم أشعر بالحرية، ولكنني شعرت

بالأسف والقهر. فهاأنا ذا قد سُرّحت دون أن أشارك في عبور أشعر أن ساعته قد قربت. لم أرغب أبدًا في ترك الموقع ولا مفارقة مدفعي. إنني الآن أحن إليه وأحتاج إلى لمس أجزائه. كم كنت سأشعر بالحرية لو ظللت في مكاني لأشارك في العبور والتحرير..

استقبلني أبي بفرح واحتضنتني أمي، وتجمع أفراد من أسرتي امتلأت بهم الصالة. وعلت الأصوات مهنئة بسلامة "الخروج" والوصول.. جلست صامتًا أسمع وأجامل، ولم يشعر أحد بأن داخلي يموج بالحزن والأسف والغيظ؛ فها أنا ذا قد عدت من رحلة استمرت خمس سنوات ونصف دون أن يتغير الوضع، ويتبدل الموقف؛ فما زالت الأرض محتلة، والغزاة بإمكانهم شن غارات على أماكن يختارونها في أوقات يحددونها. أي أسف! أي حسرة!.. وتساءل صوت بداخلي: هل توقعك بأن "التسريح الجاري لجنود سبق تأهيلهم مجرد مناورة" – ما زال ساطعًا في ذهنك؟، أم أن القنوط قد غلب التوقع وأزاحه من ذهنك المتعب؟..

صاحبني التساؤل حين التقيت بحياة الشاهد في العاشرة صباح اليوم التالي بالمتنزه العام، جمعتنا منضدة بركن يطل على بحيرة صغيرة يسبح فيها بحرية بط أبيض وأسود، وتحيطنا زهور متنوعة تفوح منها روائح معطرة، ولم تكن الشمس قد اشتدت حرارتها بعد.

جلسنا في صمت متقابلين بعض الوقت نتبادل نظرات نفهمها. حكت عيناي وحكت عيناها شعورًا بالإحباط؛ فكم تمنت حياة الشاهد أن يكون "خروجي" بعد العبور والتحرير.. بادرتُ بقطع الصمت الذي خيّم على جلستنا بقول متوتر:

- خروجي الآن غير مبرر، ولا يقبله إلا جاهل بحقيقة مشاعري.

فضغطت يدي بحنان قائلة:

- لا تبتئس. السادات يناور. حتمًا سنشن الحرب.

فتساءلت:

- متى؟.

- عما قريب.
- كيف؟!، مجرد توقعات وظنون تتردد في عقلي وعقلك.

فعقبت بثقة:

- طرد الخبراء الروس مقصود ومحسوب.
- والإهانة التي لحقت بهم؟
- يمكن تداركها.. يمكنهم هناك أن يقدروا فيما بعد. وربما فهموا الهدف من قراره، والدليل أن رئيس الوزراء عزيز صدقي نجح في عقد صفقة أسلحة متطورة تتدفق هذه الأيام على أفرع القوات المسلحة..

عدت إلى الصمت.. فمدت يدها وربتت كفي بحنان.. تحاول أن توقف "تيار الأسئلة" التي تجتاح عقلي، وتذهب بي إلى المواقع.. فقد عرفت مني قبل الآن مدى ارتباطي بخط المواجهة، وحرصي على تحقيق "العبور المنشود".. همستُ بغيظ يملأ قلبي:

- ضاع أصدقاؤنا الثلاثة في غمضة عين.
- سوف يتاح لك أن تثأر لهم.
- متى؟!
- قريبًا.

فتلاقت عيوننا - لنعود مرة أخرى إلى الحديث عن المستقبل: المسكن، والأثاث، والاستقرار، ومواصلة الدراسات العليا، والعمل بالصحافة، وإنجاب البنين والبنات..

(٢٥)

اندمجت في حياتي المدنية. بأن عملت بصحيفة الغربية في باب قريب إلى نفسي، حيث أسند إليّ رئيس التحرير مهمة الإشراف على صفحة "صور من المعركة"؛ فوقفت على معلومات جديدة.. واكتشفت أن رئيس التحرير يحجب أحيانًا الأخبار المحبطة التي قد تؤثر في الحالة المعنوية لدى الجماهير، لا سيما أن السادات الذي وعد بإنهاء الاحتلال لم ينفذ وعده، كما عدت إلى متابعة موضوع بحثي للماجستير المسجل بآداب القاهرة..

الظاهر أن الحزن قد تعاقد معي فلم أهنأ طويلاً بحياتي المدنية؛ فقد توفيت أمي فجأة في "٢٢" سبتمبر ١٩٧٣، وكأنها أثرت الغياب احتجاجًا على أن الدولة لم تعد لها ابنها الأكبر الضابط "عادل"، ولم تثأر لغيابه أو فقده بإعلان الحرب على الغزاة..

تلقيت العزاء طوال يومين.. وفي اليوم الثالث طرقت الباب أيدٍ عجلة. كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحًا عندما فتحت الباب على اثنين بالملابس المدنية. سلماني "استدعاء" عاجلاً صادرًا عن وحدتي القابعة الآن خلف جناين "أبو سلطان" بمسافة خمسة كيلو.. هرعت إلى الداخل.. وعدت بالحقيبة التي تضم الأفرول والحذاء.. أخبرت أبي الذي استيقظ منزعجًا – بأنني استدعيت إلى وحدتي التي غادرتها منذ شهرين. شدّ أبي على يدي وتمنى لي العودة سالمًا. أدركت وأنا في السيارة أن ساعة العبور قد حانت لا سيما أن السيارة كانت ممتلئة بأفراد من دفعة ٧/١ وهي تقطع طريق الإسماعيلية..

اتجهت إلى مدفعي فور وصولي.. كان منصوبًا على سطح عربة كبيرة. وحوله: جودة، وسامي، وفادي. استقبلوني بالأحضان والتحيات الحارة. فرحت بفرحهم.. وفي الصباح سرعان ما امتثلت للأوامر الصادرة من الرائد جمال العارف وهو يرسم ابتسامة صافية ذات دلالة استوعبتها بسرعة، وبادلته بابتسامة ماثلة..

مع أول ضوء لنهار ٦ أكتوبر بدأت القوات المتمركزة في التحرك البطيء صوب الشرق، ثم ما لبثت أن توقفت، ثم استدارت عائدة إلى المناطق التي تحركت منها. وفي الثانية عشرة ظهرًا تحركت ببطء تجاه الشرق مرة أخرى، وكان الجنود بطبيعة الحال صائمين فنحن في العاشر من رمضان، ثم صدر الأمر بزيادة السرعة قليلاً حتى اقتربنا من حدود "الجناين" ثم توقفنا. وفي الساعة الثانية وخمس دقائق عبرت فوقنا عدة موجات من طائراتنا إلى سيناء إيذانا ببدء الحرب بعد أن نجحت "القوات الهندسية" في إذابة مواضع من الساتر الترابي العملاق. وتوالت موجات الطيران تجاه الشرق المأسور وانطلقت المدافع بكافة أنواعها في وقت واحد تقصف

مواقع العدو فوق الساتر وخلفه في سيناء. بينما أسقط حائط الصواريخ الطائرات التي حاولت أن تتعقب طائراتنا العائدة من مهامها الناجحة أو تقصف قواتنا التي توشك العبور..

وفي انتظار الأمر بالتحرك أدرت بصري في القوات المتأهبة، ورأيت أطقم المدافع الثلاثة الأخرى في مساحات متباعدة فاطمأننتُ. وتابعت طاقم مدفعي وأنا قابض على "الزناد" المؤمّن، فغمرتني السعادة؛ فأفراد طاقمي تعكس ملامح وجوههم تصميمًا على إنهاء المهمة المقدسة.

قلت لفادي سيدهم:

- مستعد؟

فأجاب بسرعة:

- على أتم استعداد.

وقال جودة البنهاوي:

- أنا مطمئن بوجودك الآن. إنني مطمئن للغاية.

وقال فادي سيدهم:

- ما سمعته عنك منذ ألحقت على الفصيلة يجعلني غير مبال بالخطر.

فقلت:

- المهم الحرص والثبات.

وقال سامي راغب:

- قلت لأبي وأمي الأسبوع الماضي وأنا في الإجازة. ربما لا أعود في الإجازة القادمة.. لأننا سنتحرك في مشروع تدريبي واسع.

تأملت الثلاثة بنظرات حب يمازجها إحساس بالأسى والقلق. وقلت لنفسي: كم يشعرني كلامهم بالاطمئنان والثقة في المستقبل رغم الخطورة المتوقعة التي تكمن دون شك في "ضربة وقائية" ينفذها العدو في أية لحظة، أو في ردّ فعله ضد هجومنا الذي يوشك أن يبدأ..

أطرقت قليلاً وأنا خلف المدفع قابضًا على الزناد المؤمّن، فرأيت أصدقائي الثلاثة: فكري، ورمزي وعدلي الذين قضوا في الغارة الجهنمية المباغتة. جاءوا واحدًا بعد

الآخر وشدوا على يدي وأنا قابض على الزناد. ورأيت حياة الشاهد تقبل على الموقع مبتسمة وتقول:

- الآن، اعبر وحرر واسترد.

ولما وجدت مني صمتًا ودهشة قالت:

- اعبر وأنا معك..

وسمعتني أقول في إطراقي:

- لا تحزني إذا لم أعد.

فتساءل فادي سيدهم وهو يربت كفي:

- إلى من توجه كلامك؟!

فأجبت وأنا بين اليقظة والغفوة:

- إليها.. إلى حياة الشاهد. جاءت لتشارك.

فهزني برفق لتتعانق نظراتنا لدقائق. ثم قال:

- ليلة أمس حلمت بالمسيح يشق طريقًا في الساتر الترابي وأمرني بأن أتبعه.

تفاعلت بقوله وقلت له:

- الظاهر أننا سننجح في أداء مهمتنا المقدسة.

فعقب فادي:

- عندي إحساس بأننا سننجح بعد عبور طائراتنا إلى الشرق..

(٢٦)

هاهي ألوية الفرقة بكتائبها التسع تعبر بسرعة في الثالثة والنصف فوق الكباري التي أقامها "سلاح المهندسين". وسرت بيننا ونحن نتقدم معلومة كنا ننتظرها منذ سنوات، بأن الطيران ضرب أجهزة اتصالات العدو، ومخازن ذخيرته وطرق إمداداته في وقت قصير.. وهانحن نسارع بنصب المدافع الأربعة فوق تلال متباعدة لاصطياد الطائرات المنخفضة التي نتوقع أن تلاحق طائراتنا وهي عائدة إلى قواعدها، أو تعمد إلى ضرب المواقع الأمامية..

رأيتني أهرع إلى علم الوطن الذي رشقه جندي من مشاتنا فوق هضبة قريبة لأن العلم أوشك أن يميل، سارعت إلى الهضبة بعد أن حل مكاني فادي سيدهم فثبّته بقوة في اللحظة التي رأيت فيها جنديًا يسقط العلم الإسرائيلي ويغرس بدلا منه علم الوطن الذي جعل الهواء يحركه إلى اليمين وإلى اليسار.. كم استفزني "العلم الإسرائيلي" الذي كان يعتلي ساتر برليف. وكم تمنيت زواله.. وهاهو علم وطني يعتلي المكان بعد خمس سنوات وعشرة شهور..

حين استدرت لأعود إلى مدفعي أصابتني رصاصات قناص كان يكمن خلف تل بعيد. لكنني تحاملت وأسرعت إلى موقعي بينما الدماء تتدفق من صدري وظهري دون أن أشعر بأي ألم.. حرصت على اتخاذ مكاني وراء مدفعي؛ لإحساسي القوى بأن هجمة سوف تحدث بعد لحظات.. كما توقعت اندفعت ثلاث طائرات منخفضة فعاجلها بالضرب أفراد يحملون صواريخ مضادة فأصابوا اثنتين وارتفعت الثالثة ليدمرها في الجو صاروخ سام "٦"، ثم تعاملت مدافعنا الأربعة مع طائرتين، أسقط طاقمي واحدة بينما نجحت الثانية في توجيه صاروخ إلى طاقم المدفع الثالث ففجرته..

رأيتني أغيب تدريجًا عن الوعي وأسقط بجوار مدفعي تتدفق من صدري وظهري الدماء، فسارع فادي وحلّ مكاني، بينما أقبل عليّ جودة محاولاً وقف نزيف الدم.. رأيت في مراحل غيبوبتي شقيقي "عادل" الذي لم يعد أبدًا من الحرب السابقة "٦٧".. رأيته في ردائه العسكري وهو يبتسم.. ورأيت أصدقائي الشهداء الثلاثة وهم يتحسسون برفق جراحي.. ورأيت فتاة وجندي "إكسلسيور" يغادران بعد أن استعادا الدبلتين، ورأيت الشبان الثلاثة الذين صارعتهم يقبلون عليّ معتذرين، وتجلّى في الأفق وجه حياة الشاهد ترتسم في استدارته بسمة قمرية، ورأيتها تمد يديها وتمسح على جبهتي برفق وحنان.. وهمس صوتها الحاني:

- نجوت.. استرح الآن.

فاستسلمت لأيد ترفعني وتمشي بي وتضعني في سيارة طبية تكمن خلف تل حصين، لتتولاني بعناية أيدي أطباء ومساعدين، فشعرت وأنا أغيب عن الوعي بخفقة قلبي الذي تستوطنه مشاعر الرضا والسلام والاطمئنان.

١٧ يناير ٢٠٠٨



كتب أخرى للمؤلف

أ- القصص:

- **سلوى الروح:** (رواية)، ط(١)، لجنة النشر للجامعيين، ١٩٦٠، ط(٢)، دار الإبداع، ٢٠٠٦.
- **الجرح:** مجموعة قصصية، ط (١) ١٩٧١، ط (٢)، الأنجلو المصرية- القاهرة، ١٩٩١، ط(٣) دار الإبداع ٢٠٠٨.
- **الكلام:** مجموعة قصصية، ط(٣) دار الإبداع - القاهرة ٢٠٠٨.
- **أمواج الفردوس:** مجموعة قصصية، ط(١) الأنجلو المصرية-القاهرة ٢٠٠٥.
- **العائد بالحب:** رواية، ط(١)، دار الإبداع ٢٠٠٦، ط(٢) أجيال ٢٠٠٨.
- **يوم:** مجموعة قصصية، ط(١) أجيال٢٠٠٨.

ب- البحوث العلمية:

- **فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ:** ط(١) مكتبة أم القرى١٩٨٤، ط(٢) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٨.
- **قيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم:** ط(١)، الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٩.
- **تذوق الفن الشعري في الموروث النقدي والبلاغي:** ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٩.
- **مقاييس الحكم الموجز في الموروث النقدي:** ط (١) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩١.
- **الخطاب النفسي في النقد العربي القديم:** ط(١) الأنجلو المصرية١٩٩٣، ط(٢) مكتبة الآداب- القاهرة ٢٠٠٦.

- **فاعلية التعاقب في الشعر العربي الحديث**: ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩٥.
- **جدلية الأداء التبادلي في الشعر العربي المعاصر**: ط(١) ١٩٩٥، ط (٢) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩٩.
- **الصنعة الفنية في التراث النقدي**:ط(١) مركز الحضارة العربية -القاهرة ١٩٩٩.
- **طاقات الشعر في التراث النقدي**:ط(١)الأنجلو ٢٠٠٠، ط(٢) مكتبة الآداب، ٢٠٠٧.
- **نظرية الإبداع الشعري عند النواجي**: ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٠.
- **إحكام النص الشعري في التراث النقدي والبلاغي**: ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠١، ط(٢) الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ٢٠٠٨.
- **تحليل النص الأدبي: دراسات في الأجناس الأدبية** (بالاشتراك مع د. عزة الغنام ود. الزهراء بدوي) ط(١) الأنجلو المصرية – القاهرة ٢٠٠١.
- **تجليات الإبداع الأدبي**: ط (١) الآداب- القاهرة ٢٠٠٢، ط(٢) الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ٢٠٠٨.
- **أساليب علم المعاني بين النظرية والتطبيق**:ط(١) الآداب-القاهرة ٢٠٠٣.
- **الفنون البيانية والبديعية بين النظرية والتطبيق**: ط(١) الآداب- ٢٠٠٣.
- **البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ**: دراسات في النص القصصي من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٦،ط(١) الأنجلو المصرية – القاهرة ٢٠٠٤.
- **مرايا التجلي: رؤى نقدية كاشفة**: ط(١)، الأنجلو المصرية-القاهرة ٢٠٠٥.
- **فيض القلم: مقالات في الثقافة والأدب**: ط (١)، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٥.
- **نجيب محفوظ حالمًا بالقمر**: ط(١) الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦.

مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة : المنيب ٣٣٧٥٦٢٩٩